عنترة بن شدّاد

٣



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٣

تأليف

حسن جوهر
محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

شاء القدر أن يتهم شاس وهو سائر بجريمة قاسية ، حتى يلمس ما يعانيه البرىء من الألم ، إذا ما اتهم بجريمة هو منها برىء ، فقد لقيه فى طريقه عشرة فرسان، من بنى الريان، وعلى رأسهم فارس يقال له حسان، فنمّ كاذب سواده، عن حقارة منزلته ، فاستوقفه حسان فوقف ، ثم قال :

هذا هو العبد السارق ، الذى يطرق حيّنا كل ليلة ، فيسرق ما امتدت إليه يده ، وهو الذى سرق جوادى ، وأحرق من أجله كبدى ، وقد أوقعه بغيه فى أيدينا لنقتله ، ويستريح الناس من شره ، فقال شاس :

ما كنت فى يوم من الأيام عبداً ، وما كنت فى حاجة إلى أن أسرق، فأنا شاس بن زهير ملك عبس وذبيان ، وفزارة وغطفان ، أصابنى الدهر بشره حتى سوّد جلدى على نحو ما ترون ، وقص عليهم قصته، فما كاد يتم قوله ، حتى تقدم فارس منهم قائلاً :

وما ظلمك الدهر بعبوسه، ولا عقّك بما صبه عليك من محنه ، ولكنك ظلمت وافتريت كما ظلم أبوك من قبل ، بقتله أبى ، فلكم عندى يا أصحابى ما تقترحون ، من مال ونعم ، على أن تتركوه لى ، أقتله جهرة بين قومى ، أخذاً بثأر أبى ، ومحواً للعار عنى ؛ وساقه الفارس أسيراً ، وعادوا جميعهم إلى ديارهم ، وشاس يكاد يغشى عليه من خوف الموت .

ولما ذهب الأشعث زوج المرأة العربية ، ووالد البنات الثلاث ، اللائى أنقذهن عنترة الى البيت الحرام ، أخبر عنترة أن شاساً مصيره فى يديه ، وأنه يطلب نجدته ، فقام من فوره إلى جواده وسلاحه ، وأسرع إلى شاس ، وأخوه شيبوب معه ، مخلفاً الشيخ العربى يرجع على مهل ، وقال شيبوب لأخيه وهما يسيران :

عجبت لك ! ! كيف تسرع إلى إنقاذ شاس من التهلكة ، وأنت تعلم ما يكنه لك فى صدره من بغض وموجدة ، وأنه العقبة فى سبيلك إلى عبلة ، ولم يترك حيلة لاغتيالك وهلاكك ؟ ! ! فقال عنترة :

وأين الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس ؟ !

وبينما شاسٌ يسير أسيراً ، إذ به يرى عنترة مقبلاً ، كالعقاب المنقض أو الوابل المنهمر ، فصاح مستنجداً :

واعنترة بن شداد ! أنا شاس بن زهير ، لا أجد لى منجاة إلا على يديك ! وما كاد ينتهى من قوله حتى أجابه عنترة : لبيك يامولاى ! ثم هجم على الفرسان ، وجال فيهم جولات صارخة ، فلم ينج من سيفه إلا فارس حملته فرسه السريعة ، وطارت به مع الريح ، ثم أقبل على شاس ، ففك وثاقه ، وجعل يواسيه ، ويخفف من بأسائه ، وشاس شارد اللب ، مُغْضٍ طرفه حياء وخجلا ، مما قدمت يداه من سيئات لعنترة ، وما تلقاه به عنترة من حسناتٍ ، وجلس جميعهم يتحدثون ، ويأكلون ويستريحون .



وبينما هم على هذه الحال ، أقبل عليهم الشيخ العربى ، فأعطاه عنترة كثيراً من مغانمه فى تلك المعركة ، وودعه إلى أهله ، ثم قصد عنترة وأخوه وشاس إلى وطنهم ، وسلكوا إليه سبلا غير مطروقة ، بقيادة شيبوب ، إذ كان على علم بالديار ومواقعها ، ومسالك الصحراء ومنافذها ، حتى كانوا بأرض يقال لها ذات الأعلام ، فى وقت كان ظلام الليل فيه قد أدبر ، فلاح لهم ستة جمال ، عليها هوادجها الحريرية الموشاة بالذهب ، ومن حولها عبيد عماليق ، متقلدون السيوف ، وغيرها من آلات القتال والنضال ، وجوار حسان ، يخببْنَ فى الحلل الملونة ، يتقدمهم فارس فارعُ الجسم ، عريض الصدر ، شديد العضل ، جميل الوجه ، ينم توقد بصره عن قلب ثابت لا تزعزعه الحوادث ، وهو فى عدته الحربية ، فنظر شاس نظرة فيما بين يديه ، فارتدت خاسئة حسيرة ، لم تخف على عنترة ، فقال له :

لا تخش يامولاى همًّا ولا ضيراً ، ما دام عنترة فى ركابك ، وما دام عنترة يحمل قلباً بريئاً وفيًّا ، وسلاحاً مرهفاً ماضياً ، فقال :

ما تألمت إلا إشفاقاً عليك ، وإن كانت نجاتنا فى يديك ، فقال :

ما دام الجهد يكفينا ، فلا تأس على ما يصيبنا ويدهمنا ، ثم التفت إلى أخيه شيبوب قائلاً :

اذهب إلى هذا الفتى ، واطلب إليه أن يستسلم ويأتمر ، وإلا فقد أعذر من أنذر .

ولما رأى الفتى شيبوباً قادماً إليه ، أمر أحد عبيده أن يذهب لمقابلته ، ويخيره بين أمرين ، أن يعطيهم ما يحتاجون من زاد ومال ، إن كانوا ذوى عدم وحاجة ، أو يذيقهم كأس المنون ، إن كانوا لئاماً فجرة .

والتقى العبد بشيبوب فألقى فى سمعه ما حمله ، فقال شيبوب :

دع عنك هذا الهذيان ، واستسلموا ولكم الأمان ، وإلا فقد حل عليكم الذل والهوان ، فقال العبد :

عجبت للرجل يقرر مصيره ، على أساسٍ من وهمه وزعمه ، هلا سألت عن هذا الفتى ، ثم قررت فيه ما ترى ؟ ! فقال شيبوب :

فليكن هذا الفتى من شئت ومن شاء ، فقال العبد :

وكان جديراً بك أن تعلم أن فوق كل ذى قوة قوة ، فقال شيبوب :

وما كان يجدر بك أن تذكرنى بذلك وتنسى نفسك ، فقال العبد :

نحن الآن سفراء عن الرجلين ، والواسطة بين القوتين ، وجدير بى وبك ، أن يقف كل منا على أمر صاحبه ، ثم ندع لهما تقرير مصيرهما ، فقال شيبوب :

حسناً ما قلت ، فمن صاحبك ؟ فقال : روضة بن منيع ، من بنى سعد ، رأى صورة عبلة ، فى شعر عنترة ، فأحبها ، وهو ذاهب الآن إلى بنى عبس ليطلبها ، وهذه الهوادج لأخواته وأمه ، ومن حولهن جواريه وعبيده ، وهو فارس عنيد ، وجبار عتيد ، وماله كثير يعم القريب والبعيد

وقد أخفى مقصده على قومه ، وأعلن أنه ذاهب إلى أخواله بنى كنانة ، وقد التقينا بكم ، ولا ندرى من أنتم ؛ فقال شيبوب : وصاحبى عنترة بن شداد ، صاحب عبلة التى يطلبها صاحبك ؛ ثم افترقا .

ولما أخبر شيبوب أخاه ، نهض إلى جواده فامتطاه ، وقصد إلى روضة ليقتله أو يأسره ، فوجده قد تهيأ للقائه ومبارزته ، وهو على يقين من نفسه أنه سيصرعه وينال مأربه ، ثم احتدم بينهما العراك ، واشتد الكر والفر ، وأوشك أن ينفد الجلد والصبر ، وانتهى أمر روضة إلى أسره ، فقُيّد وسِيقَ إلى جماعة عنترة ، فخشيت أمه وأخواته أن يحل به الردى ، فأسرعْن مسفرات إليه ، يتألق جمال خلقهن فى ثيابهن الحريرية ، ولم تستطع غبرة الحزن عليه ، أن تمحو آيات الحسن فى وجوههن وقوامهن ، وهناك ألقين بأنفسهن على أقدام عنترة ، متضرعات راجيات ألا يفجعهن فى أخيهن ، وإن كان لا محالة من قتله فليكن جميعهن قتيلات قبله ، حتى لا يذقن مرارة فراقه ، ولا تحرق كبودهن أسفاً على موته .

أصاب هذا الرجاء موطن الكرم من عنترة فأمر بإطلاق روضة قائلاً : ارجعن بأخيكن إلى الهوادج آمنات . فشكر له روضة عظيم مروءته ، وأعلن الرجوع إلى وطنه ، مذيعاً مكارم عنترة ، ناشراً بين قومه مواهبه وفضائله ، ولكنه رجاه أن يقبل منه أمراً ، فقال عنترة :

وما ذاك يا روضة ؟ فقال : أن تقبل منى هدية كنت قد حملتها لعبلة ،



فأنت بها أجدر وأولى، ولك فيها ما تختار وترضى ، وناوله ثلاثة ثياب من الحرير ، فى كل ثوب عقد من الجوهر ، فقبلها عنترة شاكراً ، ثم حياه وودعه .

٢

سار عنترة ومن معه حتى أشرفوا على ديارهم ، فأشار شاس عليه أن يسبق شيبوب إلى أبيه زهير ، ليلقى إليه بشرى قدومهما ، فيخف إلى استقبالهما ، فى حفاوة تليق بهما .

وما ظهر شيبوب بالديار ، حتى جاءه الناس من كل فج ، وشاع بينهم الهرج والمرج ، وهو لا ينفك آخذاً سمته إلى بيت الملك زهير ، مردداً فى سمع الناس الحافين من حوله : لقد ذهب عنكم الباس ، بمقدم عنترة وشاس .

وكان الملك زهير قد أصابه من الهم والغم لفقد ابنه وعنترة ما جعل الحياة مرة المذاق عنده ، وما ألقى شيبوب فى أذنه خبر مقدم عنترة وشاس ابنه ، حتى سرّى عنه، وأضاءت الدنيا فى عينيه ، واستخبر شيبوبا ما جرى لهما ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أعلمه إياها ، فزاد حبه لعنترة وسمت منزلته فى نفسه ، وقام فى جنده وأتباعه لاستقبالهما والحفاوة بهما .

ماجت الأحياء والعشائر ، وتدفقت سيول الناس فى كل مسلك ، كأنهم إلى الحشر يساقون ، وخرجوا فى صحبة زهير وجنده ، رجالا ونساء، فتيات وفتياناً، يستخفُّهم الفرح، وتلعب بهم البهجة والمرح ، وعمارة وأخوه فيهم، ولكنهما منطويان على غيظ أليم، والتقى القوم بالقادمين ، فرحين مهنئين .

ولما سلم مالك بن قراد على شاس مهنئاً ، قال شاس له :

لا أقبل لك سلاماً ولا تهنئة ، حتى تعلن زواج عبلة بعنترة ، وتطهر قلبك من أدران الحسد والهوى ، فليس فينا من يساميه شجاعة وجرأة ، ووفاء وولاء ومروءة ، فقال مالك:

ما يشكُّ أحد من العرب الآن فى صدق قولك ، وعدالة رأيك، ولقد أصبح عنترة مناط شرفنا ، ومهبط مجدنا ، والقوة التى ندفع بها أعداءنا ، ونحمى ذمارنا ، فعبلة من الآن زوجته وأنا عمه أخو والده ، وهذا الملأ من الناس على ما أقول شهود ، كل هذا يجرى وعمارة فى زى اللئام ، يبدو فرحاً مهنئاً ، ويخفى فى صدره قلباً حاقداً ، وقد تزاحمت نواحى السرور على زبيبة أم عنترة ، فلا تدرى : أتفرح لقدوم ابنها، أم لإعزاز زهير إياه، أم لابتهاج القبائل به ، أم لإعلان مالك زواجه بعبلة ، أم لكبت عمارة غريمه ومنافسه فى زوجه . فكنت تراها غادية رائحة، ضاحكة مستبشرة، والنساء من حولها حافات، مغنيات مزغردات، وما زال القوم على هذه الحال حتى

اطمأنوا فى الديار ، وهناك ذبح الملك الذبائح ، ودعا إلى وليمة عامة شاملة ثلاث ليال كاملة ، ابتهاجاً بقدوم ابنه وعنترة ، وفى الليلة الرابعة ، كانت الوليمة عند شاس بن زهير ، ولما كمل الجمع قام شاس فيهم معلناً : يا بنى العمومة ، لقد علمتم أنه ليس فينا إلا من صان عنترة حريمه ، وحفظ عياله ، وكبتَ عدوه ، وذاد عن حماه ، وقد غمرنى بمروءته وإحسانه ، فأصبحت حياتى هبة حُسامه ، وأقل ما نجزيه به على فعاله ، أن نحضر غداً لنتم زواجه ، ونزف إليه عبلة بنت عمه ، حتى يحظى بها ، بعد ذلك العناء الذى قدر له أن ينقطع ، باهتدائنا إلى الرشاد ، وتطهير نفوسنا من رجس الأحقاد ، فمن أراد أن يشترك بماله ، فى إقامة وليمة عامة له ، فليحضر غداً . فقالوا :

ذلك ما كنا نبغى ، وستجدنا بكرة الغَدِ حاضرين .

وقام عنترة وشكر لهم كرمهم وهمتهم ، ثم قال :

يعز على عنترة أن يُتلف أموالكم فى وليمة تقام له ، وأرى أن ترجئوها عشرة أيام ، حتى أغير على بنى قحطان ، أسوق جمالهم ونوقهم إليكم ، لتكون مدداً لوليمتكم . فقال مالك بن الملك زهير :

ولقد علمتنا التجارب ألا نفرط فيك لحظة ، حتى نشبع رغبتنا بتمام زواجك ، ونحن نعلم أن ما ينفق من المال فى وليمتك ، من فيض برك ، وثمرة جودك وفضلك ، فكم دفعت عنا الأعداء ، وحفظت أرواحنا وأموالنا

من التلف والضياع ، فنحن مدينون لك بأنفسنا وما نملك ؛ فلم ير عنترة إلا أن ينزل على رأيهم ، ويرضى ما يفعلون .

أما عمارة فقد انقلب إلى بيته كئيباً ، وعكف فيه كأنه مجنون ، وأخوه الربيع يخفف عنه ما ألم به ، ووعده أن يحول بين عنترة وزواجه ويعمل فى الخفاء على هلاكه ، حتى يكون فى منجاة من غضب زهير وقومه ، ووكد له مواثيقه ألا يغفل عن تدبير حيلة لاغتياله ، حتى يصفو الجو لعمارة ، وينال بغيته من عبلة ، فشكر له عمارة عطفه .

٣

فى صباح الوليمة التى كانت عند شاس بن زهير ، خرج الملك زهير كعادته ، إلى الغدران ومعه أولاده ، وكثير من بنى عبس وذبيان ، ولما وصلوا إلى مقرهم فى الفلاة ، تفقدوا عنترة فيهم فلم يجدوه ، فأرسل شاس عبده إلى القبيلة للبحث عنه ، فقال العبد : لقد بحثت عنه فى القبيلة فلم أعثر عليه ، وقالت أمه : لقد قطع ليلة أمس يقظاً ، لم يغمض له طرف ، حتى غرق الحى فى نومه ، وأطفئت نيرانه ، فركب جواده ، وغادرنا هو وشيبوب أخوه فى الظلام ، ولا أدرى له مذهباً ولا غاية ، فقال شاس : قاتل الله مالكاً عمه ، فإنى أخشى أن يكون قد ظهر لنا بغير حقيقته ، وأبدى من حب عنترة ما ليس فى نفسه ، وكلفه أمراً يتوقع له فيه تهلكة ، وقال مالك بن زهير :

ولعلّ عزةَ نفس عنترة أبت عليه أن تكون من العرب وليمته، دون أن تكون منه نفسه، أو مُسهماً فيها بأكبر نصيب ، فخرج يبتغى المال من أجلها ، فقال شاس :

ولكنى أعلم منكم بنفس عمه ، وما انطوت عليه سريرته من مكرٍ ومحال ، ولا بأس علينا أن نعلم أبانا أمر عنترة .

كان شاس صادق الحدس ، فقد أغرْى مالك عنترة أن يعفّ عن وليمة يقوم بالإنفاق فيها جماعة العرب ، وأن يكون كل ما ينفق فيها من كسب يده، فذلك أليق بمنزلته وشجاعته، فوقع ذلك من نفس عنترة موقع القبول ، وأصر على أن يجول جولة رابحة ، يرجع منها بالمال الوفير ، والثراء العريض ، ولم يكن مالك عمه يبغى من ذلك إلا أن يعرض عنترة إلى أخطر المواقف ، عسى أن يحين فيها حينه .

وكانت عبلة قد طلبت إليه بتحريض من أبيها وإغراء أخيها أن يكون زفافها إليه على نحو ما زفت الجيداء بنت زاهر إلى خالد بن محارب ، فقد أمسك بزمام ناقتها أميمة بنت معاوية بن النزال صاحب أرض اليمن، فقال عنترة :

ولا يأخذ بزمام ناقتك، ليلة زفافك، إلا الجيداء نفسها، وإن شئت كان رأس خالد زوجها معلقاً فى عنقها .

ولما بعد عنترة عن الديار ، وشيبوب معه ، ولكنه لا يدرى له مقصداً ، ولا يعرف له غاية ، سأل أخاه عنترة :

ما الذى أخرجك فى هذا الظلام ؟ وما حاجتك وبغيتك ؟ فأخبره ما كان من عمه، وما كان من عبلة ، وأنه مصر على تحقيق ما يبتغيان ، فقال شيبوب :

أخوف ما أخافه عليك هذه الغارة ، فلن تلقى إلا ليثاً من حوله ليوث ، وقل أن تنجو منهم إذا حللت بدارهم ، وخير لك أن ترجع بنا ، وتكف عن هذا الذى عزمت عليه ، فإن الموت لك بالمرصاد ، وذلك ما يتمناه عمك ، ولذلك حملك عليه وأغراك به ، وأغرى عبلة ابنته بما طلبت ، وربما كان هذا من تدبير الربيع بن زياد ، ليحل بك العطب والهلاك ، حينئذ يخلو الجو لأخيه عمارة ، فيزوجه من عبلة ، فكيف تمكن عدوك من تنفيذ مكره ، وتقع فى حبائل محالهً ؟ ! هيا بنا نعود ، لنفسد على أعدائك تدبيرهم ، فقال عنترة :

ما كنت أتوقع منك تثبيطاً للهمة ، وإخماداً للعزيمة ، وإنك فى هذا كمن يحاول أن يغطى الشمس بكفه، ومحال أن أرجع دون تحقيق ما أريد، أو أن أتجرع فى سبيله كأس المنون ، فقال شيبوب :

ويل لمالك ! فما تكاد تخرج سالماً من خطر محدق ، حتى يرمى بك فيما هو أخطر وأكبر ! ! فقال عنترة :

دع عنك كل وجل ومخافة ، فالنصر حليف الإخلاص والفضيلة ، والحياة كدح وجهاد ، ومتعة النفس العالية فى النهوض لا القعود .

ثم أمعنا فى المسير نحو أحياء بنى زبيد ، حتى كانا فى أحشاء البرارى والآكام .

٤

خالد بن محارب من أكبر البيوتات فى بنى زبيد ، عرف بالشجاعة والقوة ، فدانت له الفرسان ، وخشى سيفه كل إنسان ، له عمٌّ يدعى زاهر ابن جياش ، مهيب الجانب ، عظيم الحول والطَّول ، فاتفق أن خالداً والجيداء ولدا فى ليلة واحدة ، ولكن والد الجيداء أخفى بالاتفاق مع زوجه أنه وُهِب له أنثى ، وأذاع فى الناس أنه رزق ولداً ، وأن اسمه جودر ، حتى لا يكون دون أخيه محارب فيما رزق من البنين ، إذ كان الأخوان على بغض خفى وحقد دفين ، وإن أظهرا للناس أنهما على إخاء وصفاء ، ومحبة ومودة .

وثارت ثائرة البغض فى نفس محارب ، وكان أكبر من أخيه سنًّا ، وأعظم قوة ، وأعز نفراً ، وأكثر نصيراً ، وفى مجلس من مجالس القوم ، أخذ الحديث دورته ، فى شئون مختلفة ، فأغلظ محارب على أخيه فى القول ، وكاد القتال ينشب بينهما ، ولكن زاهراً احترم أخوته ، وأكبر سنه ، وخفف من حضر من العرب ثورة الغضب ، وصرفوا محارباً عن أخيه .

ذهب زاهر إلى زوجته غضبان أسفاً ، فسألته : ما بالك؟ فقص عليها قصته ، فقالت :

لا بأس عليك ، وما دام أخوك على هذه الحال ، فالرأى أن نرحل إلى غير هذه الديار .

استراح زاهر لرأى زوجته ، ونزح إلى بنى سعد ، ففرحوا بقدومه ، وأكرموا مثواه ، ولما قص عليهم قصته ، قالوا :

لقد وجدت أهلا بأهل ، وإخواناً بإخوان . وكانت حياة كريمة هنيئة ، عكف زاهر فيها على تعليم ابنته الفروسية ، والأدب والشعر ، وهو كاتم أمرها ، فلم يعرف أحد إلا أنها ابن يدعى « جودرا » ، وحرصت هى على أن تخفى معالم الأنوثة فيها ، فلم يلمح أحد منها إلا فتوة نادرة ، وشجاعة حادة بارزة ، وبلاغة قول حاضرة ، وطلاقة لسان مرسلة ، ومهارة فى ركوب الخيل معجزة ، وأثار عجب الناس أن تجمع الجمال الرائع ، والبطولة التى لا يلحق لها غبار ، فلم يكن فى الناس إلا من يرى فيها خلقاً عجيباً ، قل أن يجود به الزمان ، والتف من حولها كثير من الفرسان ، يدينون لها بالسمع والطاعة ، من غير وعى ولا إرادة ، وقامت بصد الأعداء عن بنى سعد ، وخشى بأسها رجال القبائل حولها ، وأصبح بنو سعد بها فى مأمن من الإغارة عليهم ، فعاشوا فى كنفها سالمين ، وفى ظلها آمنين .

أما خالد فقد نشأ فى بيت أبيه ، يتقلب على مهاد الغنى والنعمة ، بين

شجعان قومه، وأبطال قبيلته ، حتى شب على الفروسية ، ومهر فى الضرب والطعان، وخوض معارك النزال، يساعده فى ذلك قوة بدنه، وجرأة قلبه ، ورباطة جأشه ، وخفة حركته ، وبصره بأمور الحرب .

ولما بلغ أشده ، وورث بعد أبيه منزلته فى قومه، وجاءه نبأ جودر ابن عمه « الجيداء » رغب أن يذهب إليه، ويرى ما قد سمع عنه بعينيه، من شدة البأس ، والتغلب على الأقران، وقهر صناديد الرجال ، فحمل هدية سنية ، تليق بثرائه وترفه ، وسار إلى عمه، فى صحبة أمّه ، وهناك تلقاه عمه بعطف الأبوة ، وكان منه كأحد أبنائه، وأنساه الحنان عليه ، ما كان من غلظة أبيه ، وبغضه إياه ، وحقده عليه .

ورأت فيه « الجيداء » ما أعجبها ، فوقعت محبته فى قلبها،وشغفت به شغفاً عظيما، ودفعها ذلك الحب الجم إلى أن أفضت به إلى أمها ، وأنذرتها كمداً وحسرة ، إن رجع خالد إلى دياره ، ولم تكن فى صحبته .

وكان خالد قد تعلق قلبه بها، وهو لا يدرى أنها فتاة،وقد سُرّت أم الجيداء لذلك الحب الذى مكّن له فى قلبيهما ، ووعدت بنتها أن تعمل على زواجه منها ، وأن يعودوا جميعهم إلى دار أبيها .

ثم أطلعت أمّ خالد على قصتها، وكشفت لها عن رأسها، ومظاهر أنوثتها ، فأعجبها جمالها، وحسن قوامها ، وأبدت رغبتها فى أن تكون زوجاً لخالد ابنها، فلبت أم الجيداء تلك الرغبة، وأبدت ما فى صدرها من غبطة.

ولما أخبرت ابنها خالداً بذلك ، أعرض ونأى ، وقال : ما جئت إلا لأتخذ من ابن عمى سنداً وقوة ، فإذا به أنثى تسمى الجيداء ! إنى لست مغرماً بربات الحجال ، فدعينى وماخلقت من أجله، من قراع الأبطال، واغتمار معارك القتال ، وأعلن عزمه على العودة ، متعللا إلى عمه بخلو الديار منه ، وخشيته أن يكون طرقها طارق، فودّعه عمه خير وداع ، وكانت أمه قد أفضت إلى أم الجيداء بإعراضه ونفوره، وانصرافه عن الزواج لذاته .

وعلمت الجيداء من أمها ما كان منه فى شأنها ، فعزمت أن تذهب إليه زائرة متنكرة، وتريه فى دياره من آيات الشجاعة ما لم يره، ولم ترِد أن تطلع أمها على عزمها ، فركبت ذات يوم جوادها ، وأعلنت خروجها للصيد والقنص ، ثم ولت وجهها شطر خالد ، وهناك نزلت عليه زائرة ، فأكرم مثواها وضيافتها ، وهو يعلم أنها رجل من الأبطال ، وجعلت مدة ضيافتها تخرج معهم إلى الفلاة ، لتمارس الكر والفر ، ومقارعة الفرسان ، ومبارزة الأبطال ، فرأى القوم منها العجب العجاب ، ولم يستطع خالد أن ينال منها نيلاً ، وفى رابع يوم أجهدت خالداً وهو يبارزها ويصارعها حتى أقر لها بالمهارة والفروسية النادرة ، وسألها :

من أنت أيها الفارس ؟ وإلى أى قبيلة تنسب ؟ فقالت فى شمم وعزة :
أنا الجيداء ابنة عمك زاهر ، التى أعرضت عن زواجها ، أحببت أن

أريك منزلتك منى فيما تفخر به من البطولة ، وإلى اللقاء إن قدر لنا ذلك ، وأرخت العنان لجوادها ، وتركته إلى أبيها وأمها .

• • •

غم على خالد أمره ، وأصابه ذهول الحب والغرام ، فانقلب إلى أمه يشكو حاله ، وينشد على يديها المخرج ، فقالت :

لم تسمع لمشورتى ، ولويت وجهك عنى ، واعتززت بزهوك وفتوتك ، وقد رأيت الآن أنهما لا يغنيان عنك شيئاً ، وليس لك حينئذ إلا أن تذهب فى رجالات من عشيرتك إلى أبيها ، وتطلب منه يدها ، فإن أخفى عنك أمرها ، فاقصص عليه ما علمته من حالها ، وليس بعسير إذ ذاك أن يضمّك عمك إليه ، ويجيبك إلى ما تبغى ، فهو عاقل حازم ، ومحبته إياك واضحة لاريب فيها . فقال : ذلك ما ينبغى أن يكون ، ولا إخال عمى إلا راضياً ، ليجمع شتيتنا ، ويلم شعثنا ، ويعود إلى دياره ، فى عزه الأول ومنعته .

ولقد صدق عمه ما أمله فيه ورجاه ، فلبى طلبته ، وفى حفل جامع من بنى سعد وقومه ، زوجه ابنته ، غير أنها فرضت على خالد ألا تُزَف إليه حتى يذبح فى ليلة عرسها مائة أسد ، ويقود جملها الذى يحملها فتاة من أكرم البيوتات وأسماها ، فرضى لها قولها ، ونزل على إرادتها ، وأغار على معاوية بن النزال ، وسبى بنته أميمة ، فأمسكت زمام جملها ، وزفت إليه فى جمع مشهود ، وأقاموا

جميعهم فى ديارهم يتفيئون ظلال الهناءة حيناً من الزمان ، ثم مات أبوها ، ونجم سعودهم لا يزال فى صعود ، وعلو منزلتهم بين العرب لا يزال فى اطراد .

٥

لم يزل عنترة وأخوه سائرين ، حتى أشرفا على ديار بنى زبيد ، وهناك كمن عنترة فى واد ، وبعث شيبوبا رائداً ، يندسُّ بين الأحياء ، ليعرف أحوالهم ، وينكشف له خفىّ أمرهم ، ليكون عنترة فى إغارته على بينة منهم ، فوجد خالد بن محارب وفرسانه فى إغارة له على حى بنى عامر ، ولم يترك مع الجيداء إلا مائة فارس ، لحماية الأحياء ، وكانت هى تخرج بهم كل ليلة إلى الفلاة من حول الديار لتصد ما عسى أن يكون من إغارة عدو أو طارق ، فقال عنترة : ذلك بشير الفوز .

وما أبعدت بفرسانها فى البيداء حتى أغار عنترة عليهم ، وأعمل سلاحه فيهم ، حتى قتل عدداً منهم ، وولى هارباً باقيهم ، وأبت الجيداء الفرار فطعن جوادها طعنة أردته قتيلاً ، وسقطت من فوقه ، فأمسكها بيده فى قوة ، وأوثق كتافها ، وأركبها جواداً مما غنم من فرسانها ، وقصد بها إلى دياره ، فى سرعة عاجلة ، حتى لا يلحق به أحد من قومها ،

فيعوق رجوعه، ولما لاح وجه الصباح ، رأى أمامه غبار جيش عرمرم ، فحسبه عدواً ينغص عليه شأنه ، فاستعد عنترة للقائه ، وما كان يتبينه حتى ألفاه جيشاً من بنى عبس ، نفر للبحث عنه فى ديار بنى زبيد، وفيهم زهير وأولاده ، وكانوا قد عرفوا كل شيء عن عنترة من أمه زبيبة ، والتقى عنترة بالملك زهير وأولاده ، فى فرح وغبطة .

وكان الملك قبل أن ينفر لنجدة عنترة قد علم ما كان من مالك وابنته، وأنه فكر ودبر ،وحمل عنترة على المهالك بما طلبه ، حتى خرج فى خفية ، ليحضر له ما طلبه ، فجاء بمالك وأوسعه ضرباً وتعذيباً ، جزاء غدره وحقده، وأنه لا يزال مصراً على هلاك عنترة ، فذهب مالك إلى الربيع ، وشكا إليه ما فعله زهير به من أجل أخيه عمارة ، فوجد الربيع فى ذلك مساساً بشرفه وشرف أخيه، وأجمعوا أمرهم على الرحيل والنزوح إلى ديار لا يجدون فيها ذلاً ولا ضيما .

واستقر رأيهم على أن ينزلوا بقومهم — وكانوا يربون على سبعمائة فارس — فى واد قريب من أحياء بنى عبس ، وينتظرون الوقوف على مصير عنترة، فإن نفذ فيه سهم مالك عمه، وقتل فى رحلته، أصبح الملك زهير فى حاجة إليهم ، وجاءهم وصالحهم وأرجعهم إلى ديارهم، وإن قدر له الفوز والعودة فى سلامة ،رحلوا إلى حى من أحياء العرب ،وأقاموا هناك فى أمن وعزة ، وكانت عبلة معهم ، ولم يتركوا جميعهم شيئاً من

أموالهم وأمتعتهم ، وضربوا بيوتهم فى واد يسمى « ذات الخليجين » واستقروا فيه آمنين .

ورجع زهير وجنده، وعنترة معه ، حتى كان بينهم وبين ديارهم مسيرة يوم أو يزيد، فمروا بمرج فسيح الجنبات ، متعدد الغدران ، طيب الهواء ، يُغرى المارين به بالمكث فيه ، فاستراحوا فيه قليلا ، ينعمون بهوائه، ويشربون من مائه ، وما كادوا يغادرونه حتى سمعوا فى البيداء صياحاً، فالتفتوا فإذا أسنة الرماح تتألق فى الجواء ، وبريق السيوف يشق ظلام الغبار ، فقال زهير :

لعل خالد بن محارب قدم فى جيشه ، ليسترد زوجه ويثأر لكرامته ،

فأجاب عنترة :

لا تكن أيها الملك فى حرج مما ترى ، فستجد فرسانهم تساق بين يديك سوق الأنعام، وسيذوقون الموت بالحسام ، ولو كانت رجالهم جبالا .

وكان خالد قد خرج لغزو بنى عامر ، فلم ينل منهم شيئاً، لتحصنهم فى الشعاب ، تحصناً يقيهم شر الإغارة من الأعداء ، فأشار عليه شيخ أن يذهب إلى بنى عبس، حيث يجد ما يبغى من ثراء وغنى ، فصدع بالمشورة، وعوّل على الإغارة عليهم ، فلقى فى طريقه ، بذات الخليجين ، الربيع بن زياد ، ومن ارتحل معه من عشيرته ، ومالك بن قراد وأهله، فمال عليهم بخيله ميلة واحدة ، انجلت عن قتل مائة منهم ،

وأسر بقيتهم ، وسرت لهذا الأسر عبلة ، إذ كان من العوائق فى سبيل زواجها بعمارة ، ولكنها كانت كاسفة البال باكية ، مطرقة حزينة ، فعجب خالد أن تكون على جمال رائع ، وفى هذا الحزن اللاذع ، ومعها أهلها وعشيرتها ، فسأل عن حالها ، فأنبأه أحد الأسرى من قومها قصتها إلى أن ارتحل أبوها والربيع وأهلهما إلى ذات الخليجين ، وفزع خالد حينما سمع فى أثناء القصة أن عنترة ذهب إلى الجيداء يبغى أسرها ، لتقود جمل عبلة هذه عند زفافها ، فأحضرها خالد ولطمها على وجهها ، وقال : ستكونين خادماً للجيداء ، فقالت :

لو أن عنترة رآك ، وأنت تصك وجهى بيمينك ، لفصلهامن جسمك ، وفقأ عينك ، ولعلك تلتقى به ، فتشرب كأس الهوان والمذلة ، وعسى أن تريك الأيام من ستكون منا خادمة ، فقال خالد :

لئن جمعتنا الأيام بعبدك ، لأعلقن رأسه فى عنقك ، ليزيد همك وحزنك ، وستساقين الآن إلى الجيداء ، لتكونى لها من الإماء ، فقالت :

إن وجدتها كما تركتها فى الخباء ! فثارت الحمية فى رأسه ، والتفت إلى معديكرب قائلاً :

سنقسم الجيش قسمين ، قسم تكون على رأسه ، وتذهب به إلى ديار بنى عبس ، ولن تجد فيها إلا بقية من الفرسان ، عهد إليها حماية الديار ، فأطعمهم المنية مرّة ، ولاتترك لهم شاردة ولا واردة ، وخل الديار

تنعى من بناها ، وسأذهب بالقسم الثانى إلى أحيائنا ، حيث ألتقى بزهير وجنده ، وأسقيهم كأس المنون ، وأحمى قبائلنا من عبثه ، وأرد كيده فى نحره .

٦

سمع زهير وجيشه من البيداء جلبة وضجة ، فقال لعنترة :

لعله خالد أقبل فى جيشه ، لينقذ زوجته ، فأجاب عنترة : لا تبتئس بما جاء به ، وإن كان فى مائة ألف من جنده ، وبعث أخاه شيبوبا إلى موطن الجلبة ، ليأتى بنبئها ، ويعرف : أهى لخالد أم لغيره ؟

ورآه خالد على بعد قادماً إليهم ، فظن أنه موفد من زهير ، وبعث فارساً من عنده ، يلتقى به ، ويقف على ما يريده ، ونقل كل رسول إلى أصحابه نبأ الطائفتين فعرفت كل طائفة أخبار الطائفة الأخرى ، صغيرها وكبيرها ، ظاهرها وخافيها ، ففارتا فوران البحر المائج ، وعولت كل طائفة على أن تبيد الأخرى ، وتسحقها سحقاً ، وكيف تسكن لخالد أو عنترة ثائرة ، أو تطمئن بهما حياة ، وعبلة والجيداء أسيرتان ، كل واحدة فى يد غير يد ابن عمها ؟ فعبلة تحت يد خالد ، والجيداء تحت يد عنترة .

واقتتلت الطائفتان ، فكان لهما هدير الرعد ، وزئير الأسود ،

وامتلأ الجو بصليل السيوف ، وصبغ وجه الأرض بلون الدماء ، وحمى الوطيس ، واشتد الكرب ، وضاق المخرج وحزب الأمر ، واختفى وجه الفوز والنصر ، ونفقت سوق المنايا ، هذا وعنترة غارق فى المعمعة ، لا يلقى أحداً إلا صرعه للجبين مضرجاً فى دمائه ، حتى هابه الأبطال ، وفروا من أمامه ، ولما أقبل الليل هدأت عاصفة القتال ، وأرجئت الحرب إلى الصباح .

وفى تلك الليلة أوت كل طائفة إلى مقرها ، مرتقبة ما ينفرج عنه الصباح من استئناف القتال ، أما عنترة فقد انسل هو وأخوه شيبوب إلى مكان الأسرى من بنى عبس ، ليخلص عبلة من الأسر والحبس ، كما انسل خالد وعبده دامس إلى مكان الأسرى من بنى زبيد ، لينقذ الجيداء من أسرها ، فالتقوا فى الفلاة وهم سائرون باحثون ، فوجد كل من عنترة وخالد فرصة سانحة لقتل صاحبه ، وتبارزا واقتتلا ، وكانت المبارزة قاسية عنيفة ، فعمل عنترة على أن يبعد بخالد عن حسٍّ الجيشين وسمعهما ، فجعل يراوغه ويداوره ، ويطمعه فيه ، فجرى أمامه فى الصحراء ، وخالد من خلفه يطلبه ، ولما أوغلوا فى الصحراء وأوغلوا ، وقف عنترة وقفة حاسمة ، ثم حمل على خالد حملة ماحقة ، فصل بها رأسه عن جسمه ، كما حمل شيبوب على دامس فقتله ، وكان ذلك فى مطلع الفجر ، ثم حمل شيبوب رأس خالد ، ورجع هو وأخوه إلى زهير ، فوصلا إليه فى ضحوة النهار .

• • •



انبثق فجر الليلة التى أرجأ فيها الفريقان القتال إلى الصباح — انبثق عن فقد عنترة فى جيش الملك زهير ، وفقد خالد بن محارب فى جيشه ، فزلزلت القوة المعنوية فى جيش زهير زلزالها ، وفترت جذوة الأمل فى النصر لديها ، وأعوزها من يملأ فراغ عنترة ، ويشد أزرها بجرأته وثباته ، ولم تجد بداً من خوض غمار الحرب ، ولكن فى غير رجاء مرتقب .

أما طائفة خالد فقد وجدت فيها من يخلفه ، وينهض بعبئه الذى كان يحمله ، إذ قام فيهم معد يكرب بعد رجوعه من إغارته على بنى عبس فى ديارهم فائزاً منصوراً ، فحمل الراية ، وقاد الجماعة ، وكان معروفاً بالفروسية النادرة ، والبطولة القاهرة ، فلم يشعر جيش خالد بنقص فى قيادته ، وضعف فى قوته ، وعزموا على استئناف القتال بنفوس أشد قوة ، وأمضى عزماً ، وأصلب جرأة .

ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، وما جاءت ضحوة النهار حتى أحس زهير وجيشه هزيمة تنذر بالخطر وسوء المنقلب ، فالتهبت نفسه حفيظة على مالك بن قراد ، والربيع بن زياد ، وأخيه عمارة ، ومن على شاكلته ، ممن يبغضون عنترة ، كما حزن على اختفاء عنترة حزناً جرى به دمه ، وملك عليه نفسه وقلبه .

وبينما هو يرتقب المصير فى وجل وخشية ، إذ سمع من صفوف الأعداء زئيراً كزئير الأسود ، ورأى اضطراباً وخللاً يدبان فيهم ، فخالهم بيوتاً

تُقوّض ، أو هشيما يحصد ، فتبين ذلك ، فإذا عنترة يرمى فرسان الأعداء على الثرى ، كما يرمى ريح الربيع ورق الشجر الخفيف ، وشيبوب من خلفه ، يحمل رأس خالد بن محارب على سنان رمحه ، وما رأى الأعداء رأس خالد على سنان الرمح ، وأحسوا المنايا تتقاطر من سيف عنترة ، فتلتهمهم التهاماً ، حتى ولوا الأدبار ، تاركين أموالهم وأمتعتهم ، وانجلت المعركة عن نصر باهر ، طرب له زهير وقومه ، فزاد إعزازه لعنترة ، وجعله من أشرف المقربين عنده ، وأبان للناس منزلته ، وما له عليهم جميع حياته من فيض الخير ، وجميل الإحسان ، فعرفوا له فضله ، ودانوا له بالولاء والمحبة .

وقد أثار الحزن فى الجيش عامته ، وجعل نور النصر ظلاماً فى أعينه أن عنترة تفقد عبلة وأباها وأخاها وأمها فلم يجدهم ، فأشار زهير عليه ، أن يرجعوا جميعهم إلى الديار ، حتى يطمئن المقام بهم وبالنساء من بنى عبس ، اللائى أحضرهن معديكرب معه ، وهناك يدبر الأمر فى إحضار عبلة ، ويتولى القصاص من مالك عمه ، جزاء ما اقترف من أعمال كادت تودى بزهير وملكه ، سعياً وراء اغتيال عنترة وقتله .

وهناك أحضر زهير الربيع بن زياد ، وسأله عن مالك بن قراد ، وحمّله تبعة التقصير فى الذود عن الحمى ، مدة غيبته فى حرب خالد بن محارب ، فقال الربيع :

لقد جر علينا هذا البلاء مالك بن قراد ، وقص عليه قصة «ذات الخليجين» ، وما أصابهم من أسر وإذلال ، وشاركه فى جرّ هذه المصائب الفادحة ، ذلك الفتى الغر الأحمق عمارة ، حقداً على عنترة ، الذى فك رقابنا من ذل الأسر ، ودفع عنا كل ضَيْمٍ وشر ، ولكن الأيام لا تزال تصالحه وتواتيه ، وتدفع عنه كيد أعاديه ، وسيتم له إن عاجلاً أو آجلاً ما أراد ، من زواجه بعبلة بنت قراد ، فلن يضيع أجر من أحسن عملاً ، وزكا نفساً ، وطهر قلباً ، فقال زهير :

لن يخفى علىّ من أمركم شىء ، وستلقى منى كل نفس جزاءها ؛ ثم أذن له بالانصراف .

* * *

وبعد يومين أو ثلاثة قال عنترة لشيبوب :

اركب جوادك واذهب إلى القبائل متنكراً باحثاً ، حتى تأتينى بخبر عبلة وأبيها مالك .

فصدع شيبوب بأمره ، ونفر إلى القبائل ، باحثاً عنها فى كل مكان ، حتى إذا استيأس عنترة ، وظن أن أخاه قد أصابه ما عوّق عودته ، جاءه على غرة ، يحمل إليه نبأ عبلة ، فقال :

لعلك جئتنى بنبئها ؟

فقال أخوه : ولقد رأيتها .

فقال : اقصص وأوجز .

فقال شيبوب : استجار عمك بالملك قيس فى بنى شيبان فأجاره ، وأبقاه فى دياره ، وزوج ابنه الأمير بسطام من عبلة .

فابتدره عنترة :

وهل دخل بها ذلك الوغد الأحمق ؟ !

فقال : حتى يدفع مهرها .

فقال عنترة : وما مهرها ؟

فقال : أن يقدم إلى أبيها رأس عنترة .

فقال : ذلك خير ، فقد اطمأننت عليها حتى أنقذها .

فقال أخوه : ولقد أخبرتْنى أنها قاتلة نفسها بيدها ، إن لمحت فى يده مهرها كما يدعون .

فقال عنترة : وتحدثتما ؟ !

فقال : تغفلت أباها وعمْراً أخاها ومن أجارهما ، متنكراً لحظة من الزمن ، عرفت منها ما سمعت ، وعرفت أنها تبكى من أجلك ، وتود أن تفر إلى لقائك ، ولو استطاعت أن تنبئك نبأها ما تأخرت ؛ ولقد جئتك فى هذا الوقت من الليل ، حتى تكون على اختيارك ، فى إعلان نبأ عبلة أو إخفائه وكتمانه .

فقال عنترة : إنى أرى كتمانه ، فلا تطلعْ أحداً على غيبه ، ثم قال :

وفى أى أرض تقيم عبلة ؟فقال شيبوب : جميعهم فى الدهناء ، وأرض العنيزتين ، وهم فى قلة من الحراس والفرسان . فقال عنترة : سواء علينا أكانوا فى قلة أم كثرة ، ولكن فاتك أن تعرف منها : كيف فر أبوها بها إلى بنى شيبان ؟

فقال : لم يفتنى شىء ، فقد كان ذلك من تدبير الربيع بن زياد ، وذلك أنه بعد تضعضع بنى زبيد ، وخلاص أسرى بنى عبس ، انتهز الربيع فرصة مطاردة بنى عبس لبنى زبيد وجمع أسلابهم فأغرى عمك أن يركب هو وابنه عمرو وابنته عبلة ، وينسل إلى قيس ملك بنى شيبان ، مستجيراً به ، لائذاً بكنفه ، حتى لا يرغم على زواج ابنته منك ، فيلحقه العار بسببك ، وإن أنت طلبتها منه ، تصدّى لك الملك قيس ، وسقاك كأس المنون ، ولهذا جعل مالكٌ مهرها قتلك ، وتقديم رأسك .

فهز عنترة رأسه وقال : إنهم يكيدون كيداً ، ويكيد القدر كيداً ، فمهّل الحاقدين أمهلهم رويدا ! !

وكان قيس قد نصح لابنه بسطام أن يعرض عن عبلة التى شغف بها حبًّا ، خشية ما عسى أن يلقاه فى سبيلها من ضر وأذى ، فقال بسطام : لا تخش ضرًّا ، فأنا بقتل عنترة زعيم ، وسأخرج إليه وحدى ، وسترى منى فى اغتياله ما لم يخطر على قلب أحد من العرب ؛ ورجاه أن يكتم أمره ، حتى يعود إليه برأسه .

٧

ركب بسطام جواده ، متقلداً عدة حربه ، وخاض غمار الفلوات ، حتى كان بأرض الرباب فأيقظه سكونها ، ونبهته وحشتها ، فوقف حائراً ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، متأملا مفكراً ، وإذا بغبار يرتفع فى الجو ، ولا يزال يقترب منه ؛ فانكشف له عن سبعين فارساً ، يقدمهم فارس أشد ما رأى بسطام خلقاً ، فسأله ذلك الفارس قائلاً :

انتسب أيها الفتى ، لعل النسب ينجيك ! !

فقال بسطام : إن لم ينجنى نسبى أنجانى سلاحى وكفاحى ؛ أنا بسطام بن قيس ملك بنى شيبان .

فضحك الفارس وقال :

وأنا طرفة بن نافع ؛ خرجت فى طلبك ، وقد لقيتُك .

فقال بسطام : وماذا بينى وبينك ؟ !

فقال طرفة : لقد خطبت إلى نفسى سعدى بنت شهاب اليربوعى الذى قتلته أنت بسيفك يوم إغارته على قومك ، وقد أقسمتْ أمها ألا أتزوجها حتى آخذ بثأر أبيها ، وقد جعلتْ رأسك مهرها .

فقال بسطام : ومن أجل ذلك ضحكت إذ وجدتنى وحدى وأنت فى سبعين فارساً .

فقال طرفة : وذمة العرب لن يتعرض إليك أحد من فرسانى ، وسأبرز إليك وحدى ، فخذ حذرك واستعد للنزال .

فقال بسطام : وعليك أن تنصفنى أوّلاً .

فقال : لك ذلك ، فماذا تبغى ؟

قال بسطام : أن أنزل عن جوادى حتّى يستريح ويستجم ، وبعد ذلك دونك والقتال .

فقال : لك ما شئت .

ورجع طرفة إلى فرسانه ، وأخبرهم ما دار بينه وبين بسطام من حديث ففرحوا لذلك ، وبشروه بنيل بغيته .

وبعد أن استراح بسطام ركب جواده ، وهجم على الفرسان هجمة ساحقة ، فرقتْ جمعهم ، وبددت شملهم ، والتقى بطرفة ، فطعنه طعنة نجلاء ، خر على أثرها صريعاً ، فولى بقية الفرسان وجوههم شطر ديارهم ، لا يلوون على شىء .

واستأنف بسطام سيره إلى ديار بنى عبس ، وما زال يضرب فى الفلاة حتّى أشرف على ديار بنى مرة ، فلقيه فارس أسود ، على جواد أجرد ، وكان ذلك الفارس عنترة ، يسعى شيبوب أخوه بين يديه ؛ خرج إلى بسطام خفية ، وأوصى أمه أن تعلن خروجه للبحث عن شيبوب أخيه الذى طالت غيبته ولم يسمع له خبراً .

وما كادا يلتقيان ، حتّى عرف كل منهما صاحبه ، فقال عنترة : إلى أين أنت ذاهب يا أبا اليقظان ؟ !

فقال : جئت لأحضر رأسك ، أقدمه صداقاً لعبلة ابنة عمك .

فقال عنترة : وقد ساقتك إلىّ عدالة القدر ، لأنصفها منك ، فلا يقع عليها منك البصر ، ولا يُعرف لك أثر .

فقال بسطام : دع عنك هذا الهراء فالقول للحسام يحكم بما يشاء .

فتقدم عنترة لمبارزته .

وتبارزا فى البيداء ، وعنترة يفعل به ما يفعل القط بالفأر ، يحمل عليه حتّى يكون الموت منه رأى العين ، ثم يخلى سبيله ، حتّى أضعف قوته ، وكرب أنفاسه ، وأجهد جواده ؛ وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، فطلب إليه بسطام أن يرجىء النزال إلى الصباح ، فاستجاب له عنترة ، وقال :

ودونك هذه البطاح ، فاختر لنفسك منها ما تشاء من المأوى ، لتأخذ حظك من الراحة والنوم ، ولك منى الأمان ، حتّى تعود إلى القتال .

فاعتصم بسطام بربوة عالية ، واتخذ منها مقاماً يأوى إليه ، وهو غارق فى بلائه وكربه ، نادم على أن تعرض لأمر لا طاقة له به ، وما كاد يستقر به مضجعه ، حتّى أسلمه التعب إلى نوم عميق .

أما شيبوب فقد عتب على أخيه أنه لم يجهز عليه ، وقد تمكن منه غير مرة ، فقال عنترة :

ما أردت إلا أن أحمله معي إلى بني شيبان ، لأذيقهم جميعهم الذل ألواناً ، والهوان أضعافاً ؛ وعليك أن تتولى أمره ، حتى يشرق عليه غَدُه .

فقال : سمعاً وطاعة .

وانسل شيبوب إلى بسطام فى ربوته، ليزعج نومه ، ويقلق راحته ، فجعل كلما أسلم رأسه إلى النعاس، أيقظ فيه الإحساس، فغمزه فى كفه، أو عضَّه فى عقبه ، أو وخزه فى جنبه ، حتى طار طائر النوم من عينه ، وظن أن هذه الأرض غاصة بالمردة ، فلم يذق النوم إلا غراراً ، وأشرق الصباح وهو لا يزال متعباً مكدوداً ، فأفلت من يده الأمل ، وبان له وجه الفشل ، وذكر أباه ونصيحته ، وندم أن خالف رغبته ، وعصى أمره ، وأطاع هواه وشيطانه ، وأغراه فتور عزمه ، وهمود جسمه ، أن يسلم سلاحه منجاة لنفسه، غير أنه ما لاح شبح الرق لعينيه ، حتى هبّت ريح النخوة بين جنبَيْه ، وأصر على أن يبقى حرّاً ، حتى يغلب وينتصر ، أو يهلك ويندثر .

وقامت معركة حامية كادحة ، لقى فيها بسطام من ضروب النزال ما حيَّره وأعجزه ، وكان عنترة قد عزم على أن يأسره ، ويكف عن قتله ، فضربه بزج رمحه ضربة أطارته عن جواده ، فشد وثاقه ، ووكله إلى أخيه شيبوب ، ليدفع هو خطراً نازلاً لم يكن فى حسبانه ، وما كان يتوقعه .

٨

بعث مالك بن قراد إلى عمارة يخبره أن بسطاماً خرج وحده إلى بنى عبس ، طالباً رأس عنترة ، ويرجوه أن يساعده ، حتى يقضى عليه ، ويستريح من بلائه ، فبحث عمارة عن عنترة فى الأحياء فلم يجده ، وعرف أنه غادرها فى طلب عبلة ، فأسرع إليه فى مائة فارس من خلفه ، عسى أن يلحق به ، ليكونوا عوناً لبسطام إذا ما التقيا، ولما رآهم عنترة ، ووجد قائدهم عمارة ، أدرك ما خرجوا إليه .

وقلق الملك قيس بن مسعود على بسطامٍ ابنه، فأرسل على آثاره الفارس نجادا ، على رأس مائتين من خيرة جنده ، ولما رآهم عنترة مقبلين ، عرف ما يقصدون ، وأنه أصبح بين شقى مقصِّ المنون .

رأى نجاد الفارس أن بسطاما وقع أسيراً موثقاً ، كما وجد جيش عمارة على أُهبة القتال ، فحسب أنه قدم لمحاربته ، فنادى فى جماعته ، أن احملوا فى عنف على جيش بنى عبس هذا ، ودعوا لى عنترة أكفيكم شره ، وآتى لكم برأسه ، وأفلت الأمير بسطاما من عقال أسره ؛ وهكذا يمد القدر أبرياء النفوس بمعونته ، فيحوِّل ائتمار عمارة بعنترة إلى معونة ، والخروج لاغتياله ، إلى جهاد لنجاته ، ويفرق بين الطائفتين ، ويوقع بينهما العداوة والبغضاء ، لينصرف كل منهما عن عنترة ، وينفرد هو بالفارس نجاد ، قائد جيش بنى شيبان .

ونشب القتال بين الطائفتين ، فحمل بنو شيبان ، على عبس وذبيان ، حملة حاسمة ، أبادت كثيراً من فرسانهم ، فولوا الأدبار ، وحمل عنترة على نجاد حملة منكرة ، أردته قتيلاً ، ثم ولى وجهه شطر بنى شيبان ، الذين لحوا فى أعقاب بنى عبس الهاربين ، فألفاهم راجعين ، ومعهم كثير من الأسلاب والمغانم ، فأدركوا أن نجادا قائدهم قد قتل ، وأن عنترة قادم ليقتص منهم ، فانحلت عزائمهم ، واعتلت قواهم ، واندفع عنترة بقوته الدافقة ، فنثر الرءوس بسيفه ، فلم يثبت بنو شيبان على الجهاد ، وضربوا بخيلهم فى البيداء ، يبتغون النجاة والأحياء ، ورجع عنترة إلى أخيه فرحاً بنصره ، حامداً للقدير نعمته عليه وفضله .

ولما قطع عنترة الأعداء عن غايتهم فيه ، واطمأن إلى جوار أخيه ، هنأه أخوه بنصره ، وسأله عما يفعله ، فقال :

هذه الفئة من بنى شيبان ، التى هُزِمت وفرت ، ستذيع فى أحيائها وقومها ، قتل نجاد وأسر بسطام ، فلا ينفك ملكهم قيس بن مسعود ، فى همّ واصب ، ولا يلبث أن يجمع الجموع ، ويحشد القوى ، لينفروا إلى استخلاص ابنه بسطام من أسره ، وقد عزمت على أن أذهب إلى ديارهم ، فى مسالك غير مطروقة ، وهناك أجد الأحياء خالية ، إلا من ثلة حامية ، لا غناء فيها ، وما هى إلا ساعة يجول فيها سيفى ، حتى أكون قد استخلصت عبلة ، وغنمت ما غنمت ، وغادرت ديارهم ، مخلفاً إياها فى حال أسيفة

من الضيم والفاقة ؛ فقال بسطام وكان يستمع لحديثهما :

لئن اتخذتنى صديقاً وفيًّا ، وأخاً حميا ، أرحتك من كد الجهاد ، وأنلتك ما تريد فى شرف وعزة ، فلا يخرج عمك من ديارنا ، حتى تزف عبلة إليك ، فى حفل مشهود ، وجاه ممدود ، وهناءة لا تطاوَل ، ومسرة تكبت العدو ، وتذل الخصم ، فقال عنترة : وكيف دار بخلدك بعد أن رأيت منى ما رأيت ، أنى عاجز عن تحقيق أمنيتى بسيفى ؟ لقد عولت على أن أجعل من دياركم مثلاً بين الديار ، وأن أترك لى فيها شأناً يكون حديث الناس ما اختلف الليل والنهار ، وسأعلق رأسك هذا فى عنق عمى ، الذى أرسلك فى طلب رأسى لتقدمه أنت مهراً لعبلة زوجى ، حتى تصبحا عبرة لأولى الأبصار .

ثم هم بالمسير ، آمراً أخاه أن يسلك سبلا خفية ، حتى لا يعلم بهم أحد ، وركبوا طرقاً ملتوية ، صاعدة هابطة ، موحشة مقفرة ، حتى وصلوا إلى ديار بنى شيبان ، وهناك كمنوا فى واد عميق ، حيث كانوا فى خفاء عن أعين الناس ، حتى أطلت الشمس من خدرها على الأنام ، فبعث شيبوبا متنكراً يتبين أخبار القوم ، وديارهم وأحوالهم ، حتى يختار وجهاً فى الإغارة عليهم ، يمكنه من تحقيق إرادته فيهم .

وأعجل شيبوب عودته ، فقال :

ألفيت الأحياء تغلى غليان القدر ، وتتوثب توثب الموج المضطرب

الثائر ، وجميعهم يستعدون للرحيل ، ليفتكوا بك ، وينقذوا بسطاما من يدك ، وقد ضربوا الصبح موعداً لرحيلهم ، فقال عنترة :

وإن الصبح لقريب ، وسألقاهم بسيفي هذا ، فأنثر الرءوس ، وأفرق الجموع ، في مطاوى الصحراء ، لا يلوُون على شيء .

وكان بسطام يستمع لقولهما ، فأخذه الذهول ، إذ رأى فارسين يأتمران بقبيلة ، دون وجل ولا مخافة ، وعكف جميعهم في مكمنهم حتى الصباح .

ومر بهم راع وهو لا يراهم ، وكان يندب بسطاما ، ويألم من أيام رأوا فيها عبلة وأباها ، إذ كانت شؤماً على بني شيبان ، لم يروا مثله في زمن من الأزمان ، فأمر عنترة أخاه أن يحضر الراعي إليه ، ليقف منه على أحوالهم ، وموقع تلك المصيبة من نفوسهم ، وقال عنترة : ما يبكيك أيها الراعي ذلك البكاء الذي شق منا المرائر وأحرق الكبود ؟ فقال :

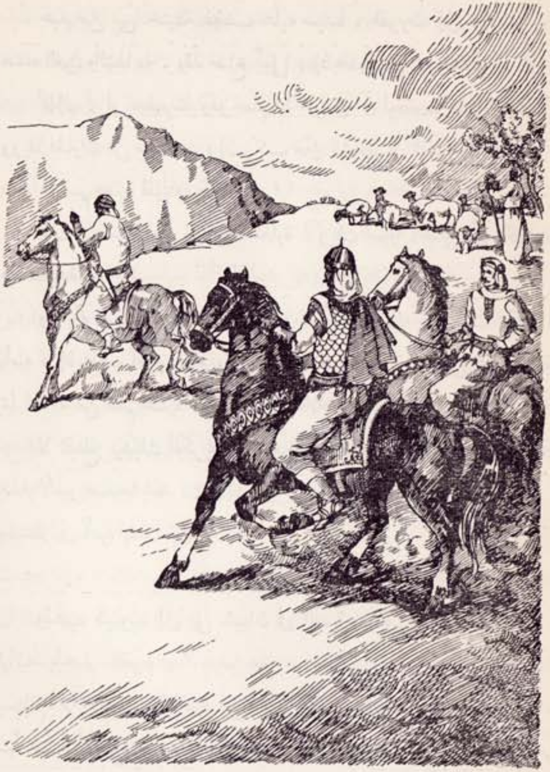
أُسِرَ أميرنا وابن مليكنا والقوم راحلون لخلاصه ، والثأرِ له .

فقال : ومن أسره ؟ ! وكيف كان ذلك ؟ !

فقص عليه الراعي قصة الأمير بسطام ، وقصة مالك وابنته عبلة ، وجعل يكيل لعنترة أفظع الشتائم وأقذعها ، وهو لا يدرى أنه هُوَ ، وعنترة لا يبدو منه ما يفهم الشاتم أنه هو ، ثم قال الراعي :

ومن أنت يا وجه العرب ؟ !

فأجاب في لين من القول ووداعته :



عبد من بنى حنيفة غضب عليه سيده ، ففررت إلى بسطام أرجو عنده العون والشفاعة ، وقد ضاع أملى ، إذ حدثـتنى بما حدثتنى .

فقال : لو حضرت وهو سالم مما هو فيه ، لوجدت عنده بغيتك ، وربما اشتراك من سيدك ، وإن ركب متن الشطط فى تقدير ثمنك .

فابتسم عنترة لقولته ، وقال له :

ألك أن تسير معى إلى تلك المغارة لأريك أسيراً ، عسى أن يكون لك فيه شفاعة .

وما رآه الرّاعى حتى خارت قواه ، وعُقد لسانه ، ودارت عيناه فى رأسه ، إذ عرف أنه بسطام ، وأن الذى يحدثه عنترة ، وأيقن بدنو أجله ، بما فاه به من شتم عنترة ، فتقدم إليه قائلا :

لا تقطع بيديك الكريمتين شجرة العفو والمغفرة ، واصفح عنى وعن هذا الأمير صفحا يخلد لك مجداً لا يزول ، فقال عنترة : إنك وفىّ لمولاك ، وسننظر فى أمره بعد حين .

* * *

وذهب شيبوب إلى بنى شيبان فى الصباح المضروب لإغارة عنترة ، ليأتيه بأخبار القوم وما عزموا عليه ، وانتهوا إليه فى أمر الرحيل لإنقاذ بسطام من يده ، والإغارة على بنى عبس وذبيان ؛ وسرعان ما جاءه بنبأ غيّر الأوضاع ، وعاق بنى شيبان عن إغارتهم ، وذلك أن جيشاً من

بنى تميم ، بقيادة قنعب بن غياث ، أغار عليهم فى عُقْرِ دارهم ، فأباد كثيراً من فرسانهم وقوّض خيامهم وبيوتهم ، وأسر من فيها من النساء ، وكانت عبلة من بينهم ، تلهج باسم عنترة باكية حزينة ، وأبوها وأخوها يلقيان العذاب ألواناً ، فقال عنترة :

لقد أوقع عمى حقده فيما وقع فيه من الذلة والمهانة ، وجرّ على أسرته وقومه مصيبة تتلوها مصيبة !

وزفر بسطام زفرة محرقة ، وهو يتململ ألماً وموجدة ، وقال :

ولقد كان سبباً فيما أصابنى وقومى من سوء ، إذ أغرانى بعبلة ، وفرض علىّ مهراً دونه خرط القتاد ، فحل بى ما أنا فيه من الأسر والهوان ، ولولا ذلك ما طمع فينا بنو تميم ، وفعلوا بنا ما فعلوا ، فقد علم قنعب ما أصابنى فجرّد جيشه ، وهجم هجمته ، ليأسر بدور أختى التى طلب زواجها منى ، فأبيت عليه ذلك ، ولو لم أفارق ديارى ، ما جرؤ على أن يفعل فعلته ، خشية من حُسامى ، ومخافة من سطوتى ، وأنا الآن أعترف باعتدائى عليك ، وقد سلمت لك بحقك ، فإما أعملت فىّ حسامك ، وإما وهبت لى ذمامك ، على أن أكون أخاً حميا ، أشد أزرك ، وأكون عوناً لك فى محنتك ، وأن أصحبك فى الانتقام من بنى تميم ، وفكّ رقاب من أسروا من حريم ، وبعد هذا تكون قد خلدت لك فى بنى شيبان فضلا لاينسى .

فرق قلب عنترة ، وهزته أريحيته ، وأطلق سراحه .

أما الراعى فقد هجم شيبوب لقتله ، فمنعه عنترة قائلا :

كيف نعفو عن السادة ، ولا نعفو عن عبيدهم ! فلنطلق سراحه من أجلهم .

٩

نهض عنترة وأخوه وبسطام صديقه إلى ديار بنى شيبان للنجدة ، ودفع الكارثة ، فألفوها خاوية على عروشها ، فقد قتل بنو تميم من قتلوا ، وأسروا من أسروا ، ولاذ بالبرية من لاذ منهم ، وألفى بسطام ثلاثة عبيد من عبيده يندبون ساداتهم وديارهم ، فبعثهم إلى البرية يلم شعث الهاربين حوله ؛ وماهى إلا ساعة من الزمن حتى كان من حوله جبهة قوية من رجاله وفرسانه ، فأنبأهم نبأه ، وصنيع عنترة به ، واستحثهم على القتال معه ، تنكيلا ببنى تميم المغيرين ، وإرجاعاً لمن أسروا وما غنموا ، فساروا فى أثرهم ، حتى أشرفوا وغروب الشمس عليهم ، وكانوا قد ضربوا الخيام ، ونزلوا إلى الغداة للاستجمام ، فأعجلهم عنترة ومن معه بالضرب والطعان ، وغاصوا فى لجج من جموعهم ، فمزقوهم شر ممزق ، واستولوا على الأسرى والمغانم ، وفر الأعداء يطلبون مراغماً فى الأرض وسعة ؛ فأمر عنترة أن يحل وثاق الأسرى جميعهم ، ما عدا مالكاً عمه وعمراً ابنه ، وكان الملك قيس والد بسطام قد أسر ، فأطلق سراحه ، واجتمع برجاله ، وأخبره بسطام ما كان لعنترة من فضل

ونعمة ، أما عبلة فقد أخذها شيبوب وجعلها مع نساء قيس ، فكانت موضع إعزازهن جميعاً .

أما قنعب بن غياث فإنه جمع رجاله بعد أن لاذوا بالفرار ، وأصر على ألا يترك أعداءه حتى يصليهم ناراً ، ويجعلهم قوماً بورا ، فقال له خاله الأخطل :

لا ترجع إلى الأعداء ، وإلا حل بك الفناء من ذلك الفارس الأسود ، الذى ما علمنا على أحد غيره من بطولة قاهرة ، وضرب يجز الرقاب وينثر الرءوس ، ولقد وصتنى أمك بك ، وأمرتنى ألا أخوض بك غمار حرب فيها عبد أسود ، وإلا كان على يده حتفك ، ولقد قصت على ما رأته فى المنام من أجلك ، وقد تحقق بعضه ، فقال :

وما ذلك الذى رأته فى منامها ؟ !

فقال الأخطل حدثتنى أنها رأتك قد صدت صيداً فرحت به ، وعظمت فى عينك قيمته ، فعزمت أن تقدمه لبدور بنت قيس هدية ، ولكنك ما كدت تغتبط به ، حتى انقض عقاب أسود فاختطفه ، فهممت أن تقتل العقاب وترجع الصيد ، فانقض عليك ، واختطف رأسك ، وحلق به فى الجو ، وأمك بجوار جثتك ، تبكى وتنوح ، ولا تجد من يأخذ بيدها ، ويخفف حرقتها ، وقد قصت على كاهن رؤياها ،

فقال الكاهن : ليحذر ابنك أن يقاتل عبداً أسود ، وإلا أهلكه ، وإن كان فى ألف من جنده .

فقال قنعب : وكيف أركن إلى الجبن والفرار من أجل رؤيا قدتكون أضغاث أحلام ؟ ! لاكنت قنعب بن غياث ، إن لم آتك برأس هذا العبد الأسود الزنيم ؛ ونادى فى جماعته : أن هبوا للفتك ببنى شيبان ، وإلا رجعتم بالخزى والعار ومذلة الزمان ؛ واشتبكوا بهم اشتباكاً ، تقاطرتْ فيه الدماء ، وتناثرت الأشلاء ، وراجت سوق الفناء .

* * *

وكان عياض بن ناشب قد نفر فى مائة فارس من أشداء بنى عبس ، ليقتلوا عنترة وهو مشغول بحرب بنى شيبان ، فلما رأوه يجول فى المعمعة ، ليفتك ببنى تميم أعدائه ، بعد أن خلص من الأسر نساء شيبان وقومه ، خجل عياض أن يقتل رجلا كريم النفس ، قوى البأس ، وقف حياته على إغاثه الملهوف ، ومعونة المظلوم ، وحماية الحريم ؛ فانقلب بغضه إياه حبا ، وحقده عليه وداًّ ، ونادى فى جماعته : أن أغيثوا أخاكم عنترة ، وساعدوه على أعدائه ، حتى ينال ما يبغى من وفاء للناس وسحق للبغى ، وردّ المظالم إلى أهلها وبر كريم بعشيرته وذوى رحمه ؛ فصدعوا بالنداء ، وأعملوا أسلحتهم فى الأعداء ، وكان قنعب بن غياث يطلب عنترة ، وعنترة يطلبه ليهلكه ، وماكادا يلتقيان حتى اشتدت بينهما المبارزة والنضال

فى فسيح البرية بجوار المعركة الحامية ؛ وما لبث عنترة أن فصل رأسه عن جسمه ، وحمله على سنان رمحه ، يقطر دمه ، ولما رآه قومه قد قتل دب الرعب فى قلوبهم ، وخارت قواهم ، فطلبوا النجاة فى مذاهب القفر هاربين ، ورجع بنو شيبان ومليكهم وابنه ومعهم عنترة وعياض ابن ناشب إلى ديارهم فرحين ، وهناك أقاموا ثلاثة أيام ، يولمون الولائم ، ويسمرون ويتحدثون بما لعنترة من معروف ونعمة ، وأعلن عياض أنه لن يحمل لعنترة فى صدره من الآن إلا المحبة والوفاء والإجلال .

وفى اليوم الرابع قال عنترة لعمه — بعد أن حل وثاقه :

يحسن بنا أن نعود إلى ديارنا ، حتى يجتمع شملنا ، ويغتبط بنا أهلونا وأصدقاؤنا .

فقال عمه فى خبث ودهاء :

أظنك معى فى أن الملك زهيراً وأولاده فى غيظ منى الآن ، إذ كنت السبب فيما وقع من هذا البلاء ، ولو ذهبت إليه ، دون أن يصالح ما بينى وبينه ، لصب علىّ من ألوان التحقير والمهانة مالا قِبَل لى باحتماله ، وأنا عمك وأبوك ، يسرّك أن أكون عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، ولهذا أود أن تذهب أنت ومن معك إلى شدّاد أبيك ، وترجوه أن يستشفع لى عند زهير وأولاده ، ليعفو عما سلف منى ، ويدعونى إلى الحضور لديه ، أما عبلة فإنى أشهد الملك قيسا وأولاده ورجاله ، أنى زوجتها لك ، عن

إخلاص لا تشوبه شائبة ، وإن رأيت أن تكون معك فى رحيلك ، فدونك وإياها ، فقد أصبحت من الآن ملكك ، لا أبرم فيها أمراً ، ولا أقضى فيها برأى .

فقال عنترة :

سيكون بسطام وكيلاً عنى فى رعايتك ورعاية ابنتك والقيام عليكما ، حتّى أنفذ إلى الديار ، وأقوم بما كلفتنى به من إصلاح ذات البين بينك وبين الملك زهير .

فقال بسطام :

وسأكون لهما على خير ما تود وتبغى .

وشكر له عمه عظيم مروءته ، وانصرف عنترة إلى دياره .

١٠

انطلق عنترة وبنو عبس إلى مواطنهم ، بعد أن أشبع عنترة نهمه ، وشفى صدره، وخلّد ذكره ، فى ديار لم تطأها من قبل قدمه ، وعياض ابن ناشب فرح بصداقته، عزيز بأخوّته، نادم على تلك الأيام التى خلت ، وهو غارق فى حقد آثم ، وحسد ظالم ؛ وبعد مسيرة أيام اعترض سبيلهم عمرو بن شهاب ، على رأس جيش من بنى ضباب ، وكان يضرب فى الأرض ابتغاء الإغارة للرزق والكسب ، ففرح للقائهم ، وظن أنه مصيبهم

وغانم منهم ، وأذّن فى جيشه ، أن تخرج طائفة لقتالهم ، والاستيلاء على ما معهم ، فلما أحس عنترة منهم هذا العدوان ، أمر عياضاً ومن معه أن يقوموا على حمايته من خلفه ، ليتفرغ لحصدهم ، وقطع دابرهم ، ولما رأى عمرو أن طائفته قد أبيد كثير من فرسانها ، دون أن تنال من عنترة وجماعته نيلا أمدها بطائفة أخرى ، فشربت الكأس التى شربتها الطائفة الأولى ، فأمر الجيش جميعه أن يحيط بهم ، ويبيدهم عن آخرهم ، وكانت زحمةٌ ضاغطة ، انفرجت عن عنترة حاملاً على سنان رمحه رأس عمرو بن شهاب ، فاختل عمود جماعته ، وانفرط عقد تجمّعهم ، وفروا إلى ديارهم ، حاملين نعى القائد ، وفشل المسعى ، وسوء المنقلب .

• • •

استأنف عنترة وصحبه المسير غانمين ، حتّى ضمتهم الأحياء باسمة بقدومهم ، فرحة بعودة عنترة سالماً ، واستقبله الملك زهير وأولاده ، كما يستقبل الكون أيام الربيع ، فافترّ الثغر المطبق ، وانشرح الصدر الكاظم ، وبلغ عنترة زهيراً توبة مالك عمه ، فقال الملك :

لعلها توبة غير مكذوبة ، وندمٌ غير خادع ! !

وأمر أن يقوم أحد أبنائه فى جماعة من الفرسان لإحضاره .

وبينا يتأهب الفرسان للسفر ، إذ طلع على عنترة رسول بسطام بن قيس ، يخبره أن عمه لا يزال فى جحوده ونكرانه ، وقد اعتصم باطمئنانهم

إلى توبته، وثقتهم بعهده وذمته ، وظلام الليل وهدأته ، وفرّ هو وأهله وابنته ، إلى حيث لا تعرف له محلة ، ويعده بسطام أنه لا ينفك يبحث عنه ، فلا يدع مذهباً من مذاهب الأرض ، ولا وجهاً من وجوه الديار إلا قصده حتّى يعرف مقره ، ويوافيه به ، أو يرده إلى حجرْه ، الذى لا يستطيع معه أن يسلط حقده على الحق ، ولا خبثه وهواه على الوفاء والعدالة .

وغضب زهير لهذا النبأ ، وقال عروة بن الورد :

ما كان لك أن تغضب بعد أن رأيت من مالك إصراره على حماية ابنته من أن يتزوجها عنترة ، وما كان لعنترة هذا أن يكون مثار الفتنة بين أعضاء الأسرة ، ولا معول هدم فى بنائها ، ومن الحق أن يكف عن عبلة ، حتّى يرجع الغائب ، ويأمن الخائف ، والبنات كثيرات ، فليطلب سواها إن شاء .

فقال عنترة : ذلك قول من لا قلب له، أو أضله هواه ، وسأحقق بسيفى هذا ما أريد ، على الرغم منك وممن على شاكلتك .

وقال زهير : سأكفيك هذا العناء ، حتّى أنجز لك ما تشاء .

فشكر له عنترة عظيم فضله وإنعامه، واستأذن وانصرف، وفى صدره غيظ مما قاله عروة ، وعزم على قتله .

وكانت سلمى أخت عروة بن الورد متزوجة فى بنى غطفان ، وهو

يحبها ويحنو عليها ، ولا ينفك يزورها حيناً بعد حين ، وقد أصر عنترة أن يلقاه فى البرّية ويقتله ، فتبعه وهو خارج إلى زيارة أخته ، وكمن له فى الطريق إلى أن يعود من زيارتها، تاركاً له فرصة البر بها، ولم يُرِد أن يعوّقه عنها ، حتّى لا يحول بين البر وفاعله .

وجد عروة أخته فى ضنك وهم عند زوجها وأهله ، ووجد منها نفورا من الإقامة وتعلقاً به أن يأخذها معه ، ولا يتركها فى دار الزوجية ، تقاسى من الآلام ما لا تحتمله ، فرجع عروة بها ، ولم يزل سائراً حتّى وصل إلى مكمن عنترة الذى يترصده للفتك به .

وطلع على عروة وأخته فارس من فرسان العرب يسمى قيس بن جدعان بغتة ، ومعه عشرة من أشداء فرسانه ، فقال :

ذلك يوم الخير والغنم والبركة ، إذ باكرتنا أيها العربىّ بهودجك ، فانتسب قبل أن يحل بك العطب ، فقال :

أنا سليل النسب الصريح ، والحسب الكريم ، وبيت النعمة ، ووليد السيادة والعزة ، عروة بن الورد ، من سادات بنى عبس ، المعروفين بالقوة والبأس .

فقال : ولقد خرجت للرزق والغنيمة ، فتحول الخروج بلقائك إلى الثأر وشفاء الحفيظة ، فأنت قاتل أخى ، ولن تفلت من يدى ، حتّى يقطر بدمك حسامى .

فقال عروة : إن كنت تقول ذلك عن قدرة ، فلتقض بينى وبينك المبارزة .

فقال : دونك وما قلت .

وما هى إلا جولات حتى كان عروة موثقاً فى قيوده ، وهتك قيس ستر الهودج فانكشف عن سلمى أخت عروة ، وهى باكية حزينة ، تصيح فى هم محرق : وافضيحتاه ! ألا من عربى كريم ، ينجينى من هذا الوغد الأثيم ؟ ! يا لعبس ! يا لعدنان !

وكان عنترة على مسمع من ذلك كله ، فابتدرها بقوله :

لبيك يا ابنة العمومة ، ولن يصيبك أذى أو فضيحة !

وانفلت من مكمنه كالعاصفة ، فشرد الفرسان بعد أن قتل منهم ثلاثة ، وأطاح برأس قيس بن جدعان فأرداه قتيلا ، وأقبل على عروة ففك قيوده ، وقال :

لقد خرجت فى أثرك ، لأستل بسيفى روحك ، ولكن النخوة بدّلت ما فى نفسى ، فكنت لك منجاة ورحمة ، ولأختك حمى وعِصمة .

فقال عروة : وذلك فضلك الذى نعهده فيك ، ولن ترانى بعد اليوم إلا أخاً وفياً .

وهكذا تبدل البغض حباً ، والعداء إخاء ، وعادوا إلى ديارهم آمنين .

١١

وبينما عنترة وشيبوب أخوه وعروة ، وسلمى أخت عروة ، فى سبيلهم إلى الديار ، إذ رأوا عربياً مقبلا من خلفهم ، ومظاهر الجد والنشاط تبدو عليه ، فسأله شيبوب عن حاله ، فقال :

أرسلنى سيدى بسطام بن قيس إلى عنترة ، أبلغه أن عمه فى بنى كندة ، وأنه على استعداد أن يأتى برجاله ، ليكونوا تحت إمرة عنترة فى إحضاره ، ويأسف لمغادرة عمه الديار على غير علم منه .

فقال عنترة : أقرئ سيدك منى السلام ، وأبلغه أنه لا لوم عليه ، إذ خرج عمى خفية ، فهو معروفٌ بالخبث والمكيدة ونقض المواثيق ، وإنى لست فى حاجة إلى معونة ، فسأنال ما أريد من بنى كندة ، فليطب نفسا ، وليقر عينا ، وبلغه شكرى لما بذل من جهد ، وما أبلى من تعب ونصب ، فى العثور على مالك عمى .

فقال الأعرابى : ومن أين لى أنك عنترة ؟

فقال : وكيف أخبرتنى قبل أن تعرفنى ؟

فقال : عرفت فيك صفاتك ، ووددت أن أتأكد ، وأشبع يقينى .

فأراه عنترة سيفاً لملكه قيس كان قد أهداه إياه ؛ فاطمأن الأعرابى وودّعهم ، ورجع على عقبه ، بعد أن أدّى رسالته .

قال عروة : لو استطعت أن أجعل قلبي درعاً تتّق به ضربات الحسام وخز الرماح لفعلت ، فاجعلني رفيقك وعونك فى غزوك بنى كندة .

فقال عنترة : لك عظيم شكرى ، ولن يذهب إليهم أحدٌ معى ، إلا شيبوب أخى ، وتلك فرصة أتيحت لى ، حتّى لا أثقل على الملك زهير وأولاده ، وأرهقهم عسراً من أمرى ، فاذهب أنت وأختك إلى الديار ، ولك كل ما غنمنا ، ودعنا نسير إلى ديار كندة ، عسى أن يقيض لنا القدر نصراً مؤزّرا .

ولما وصل عنترة إلى مياه بنى عطبول ، عوّل على أن يأخذ جمامه عندها ، ويستريح بعض الوقت ؛ وما كاد ينزل بها حتّى رأى فرساناً قادمة إليه فى همة وجد ، يقدمهم زعيمهم عروة بن الورد ، وكان قد لحق به فى جماعته ، ليعينه فى شدته ووحدته ، بعد أن أودع أخته الديار ، وقص عليهم نبأ عنترة ،وما له من سوابغ النعم ، وصنائع المعروف ، حتّى عطر الأندية بذكره ، وزاد فى غمّ عمارة وكيده .

وجد جميعهم فى المسير حتّى كانوا بأرض بنى غيلان ، فاستخلف عنترة عروة ومن معه ، ينتظرونه فى هذا المكان على كره منهم ، إذ كانوا لا يودّون مفارقته ، إلى أن يعرف شيئاً عن هذه البقاع ، ثم يعود إليهم ، ليستأنفوا سيرهم على بينة وبصيرة .

وركب عنترة متن المسالك هو وشيبوب أخوه ، حتّى وصلا إلى وادٍ

نضر الحواشى ، مورق الأشجار ، متدفق الأنهار ، طروب الجنبات بتغريد الأطيار ، مضطرب النواحى بعدو الظباء ، معطر الجواء بما تشعه الأزهار من نفحات ذكية ، فجلس هو وأخوه تحت شجرة ، يبتغيان راحة .

ما كاد عنترة وأخوه يجلسان ، حتّى سمعا من يقول فى حزن أليم :

لعنت يا مالك ، ولا سلمت عقباك ، جزاء غدرك ومكرك .

فذهبا إلى منبع الصوت ، فإذا بهما أمام جارية حالكة السواد ، وبجوارها فتى كأنه فى لونه قطعة من جسمها ، فقال عنترة بعد أن حياهما :

من أنتما يا كريمة النساء ؟ ! وما جعلكما فى هذه الحال من البأساء ؟ !

فقالت : أمرنا عجب ، فاستمع لى ، عسى أن تكشف عنا ما نحن فيه من بلاء وكرب .

هذا الغلام الأسود الذى تراه ، عنترة بن شداد ، وكان فارساً لا يشق له غبار ، ولكن الزمان تحامل عليه ، حتّى أضناه وبراه ، وأنا أمه زُبيبة ، سبانى أبوه ، وعلقت منه بهذا الغلام ، وسميته عنترة ، ولما بلغ الرشد ، واكتملت فتوته ، كان له فى قومه مواقف مشهودة ، ربحوا بها أمنة وطمأنينة ، وفاض عليهم سيفه ورمحه بالرخاء والثروة ، فأحب ابنة عمه عبلة حبًّا شديداً ، وأحبته هى حبًّا أشد من حبه ، وأعلن عمه زواجها منه ، وفى قرارة نفسه أنه لا ينفذ هذا الزواج ولا يتمه ، وجعل ينتقل بها من مكان إلى

آخر ، حتى وقع فى يد اليقظان بن جياش فقتله ، وسبى عبلة ابنته ، وهى لا تزال عنده ، فاغتم عنترة هذا من أجلها ، وهجر الأحياء حزناً عليها ، وأنا لا أستطيع فراقه ، ولا أقدر على إرجاعه إلى دياره ، ولا نزال فى هذا المكان ، على نحو ما تريان .

كاد عنترة يخرج من إهابه عجباً ودهشة ، لهذه المشابهة الغريبة ، فقال : ألك ولد يسمى شيبوبا ، وآخر يدعى جريرا ؟ !

فقالت : لم ألد إلا هذا الغلام الذى سميته عنترة ، وليتنى بقيت سعيدة به ، ولكن الزمن لا يعطى حتى يمنع ، ولا يهب حتى يسترد ، وليس لى إلا الصبر والتجلد ، حتى يأتى الأجل أو يرفع الشر والألم .

فقال عنترة : وأين اليقظان بن جياش ؟

فقالت : إنه فارس جبار عنيد، وبطل صنديد، طبعه طبع الحيوان، وكأنه وحش فى صورة إنسان ، لا هم له إلا مال ينهبه ، أو إنسان يسفك دمه ، أو حريم يهتكه ، ويفجر به ، أو زق من خمر يشربه ؛ وقد استشرى فى هذه البقعة شره ، حتى هجرها أهلها ، ولاذوا بأكناف الجبال وأوديتها ؛ ومن عجيب أمره أنه لا يسمع نبأ فتاة جميلة حتى يغير على أهلها ويأسرها ليقضى حاجته منها ، فإذا ما أشبع نفسه ، ذبحها وشوى لحمها فأكله ؛ ثم يأتى بغيرها وغيرها ، وهكذا دواليك ، ولا ينفك مع هذا يأكل لحم الوحوش والسباع ؛ فكان شاذ الفطرة ، ناشز الطبيعة ، وقد ربى

من حوله سبعة أسود ، تأتمر بأمره ، وتفترس من يشاء افتراسه ، فهو لذلك مرهوب الجناب ، لا يجرؤ إنسان أن يقف له على باب ، وقد انفرد بالإقامة فى هذا الوادى ، ولو أنه علم بنا لأحضرنا بين يديه ، فشوى لحمنا وأكلنا ، وقد عرف بين العرب بأبى الأشبال .

فهز عنترة رأسه وقال :

لعل أيام محنتكم قد أوشكت أن تزول !

وتركها وانصرف .

وأمعن هو وشيبوب فى هذا الوادى ، طالباً هذا الفارس فى مقره ومأواه ، وما شمّت الخيل رائحة الأسود حتى وقفت عن المسير ، فأدرك أنها لا تسعفه ، فنزل عنها ، وأراد أن يسير وحده ، ولكن شيبوبا ربط لجمها فى جذع شجرة وسار خلفه ، خوفاً عليه وعوناً له ، وما زال سائراً حتى وجده فى مكان فسيح ، به بيوت مضروبة ، وهو جالس أمام النار ، وبجواره حمار وحشى يشوى من لحمه ويطعم ، وعبلة قدامه ، لا يزال يلح عليها ، ويغازلها ويلاطفها ، وهى تمتنع عليه وتجيبه :

لو أنك شويت لحمى ما مكنتك منى ، ولا خنت ابن عمى ، فافعل ما تشاء .

ولما رأى عنترة هذه الحال صرخ صرخة دوّت فى الأرجاء ، فأجابته الأسود بزئيرها وهجمت عليه فأعمل سيفه فيها ، وشيبوب

من خلفه يرميها بنباله ، حتى صرع كثيراً منها ، وقتل خمسة من أسوده ، اللائى أعدها ورباها لحمايته ، ففزع أبو الأشبال ، وأيقن أن أمره أشرف على الزوال ، ولكنه اعتصم بقوته ، فتقلد سيفه ، وقام إلى عنترة يبغى قتله ، ولكن عنترة أعجله بسيفه ، فأطار رأسه ، وما رأت عبلة مصرعه حتى نهضت قائلة :

لا شلّت يداك، ولا حرم منك حسامك .

ثم أمر عنترة شيبوبا أن يأخذ ما يستطيعه من الأموال، وساروا وعبلة معهم إلى زبيبة وابنها عنترة، وما كادا يريانها مقبلة حتى ردت إليهما الحياة ونشطا من عقال الجمود، وفكا من أغلال الركود، وعرض الغلام على عنترة أن يكون من خدمه وأتباعه ، فقال عنترة:

خذ ما تقدر عليه من تلك الأموال التى غنمتها ، وارحل إلى وطنك ، واهنأ بزوجك بين عشيرتك وأهلك ، وأنصح لك أن تسمى نفسك اسماً غير عنترة ، حتى تكون بمنجاة من أهوال الزمن وحوادثه .

ثم ودعهما وانصرف هو وأخوه إلى عروة بن الورد ، ففرح هو وفرسانه بعودتهما ، وعجبوا مما سمعوا من قصة عنترة وما فعله فى أثناء غيبته ، وعزموا على الرحيل فى غدهم إلى بنى كندة ، ولنتركهم الآن سائرين ، حتى نلتقى بهم فى ديار بنى كندة .

١٢

هرب مالك وابنه وابنته من بنى شيبان خفية ، وجعل يؤم القبائل واحدة بعد واحدة ، مستعصما بشيخها من عنترة ، فما وجد منهم من يعصمه ، خشية عنترة ، إذ كان قد استعلن ذكره ، واستفاض أمره ، وانتهى به التجوال إلى بنى كندة ، فقدموه إلى عمرو ملكهم ، وقص عليه ما كان بينه وبين عنترة فى حزن وألم ، وما كان من إباء القبائل أن تعصمه وتحميه ، فعصفت فى رأسه ريح الحمية ، وقال :

وقد أجرتكم من كل من يتردد فى صدره نسيم الحياة ؛ وأمر أن يضرب له ولأهله بيت بجوار بيته ، وأغدق عليهم رزقه ، وأسبغ عليهم كرمه وفضله ، فافتر ثغر الزمن لهم عن حياة هنيئة ، وعيشة راضية آمنة .

لم تمض أيام على مقامهم الجديد ، حتى قدم مسحل بن طراق ، إلى خاله عمرو ملك كندة ، وكان قد سمع عن عبلة فى شعر عنترة ، فأحبها وجاء إلى خاله ليساعده على زواجه منها ، فكان من حسن حظه أن وجدها تقيم هى وأبوها وأخوها فى كنف خاله ، متفيئين ظلال نعمه ، لائذين إلى قوته وحمايته ، فقال خاله : لئن قيضت لك هذه الفتاة سعدت حياتك ، وهنئت أيامك ، وابيضت لياليك ، فقد ألفيناها جميلة الخلق ، نبيلة الخُلق ، سليمة التفكير ، عذبة الحديث حازمة الرأى .

فقال : لقد سمعت عنها فى شعر عنترة وأحاديث الناس من المزايا والمحامد ما لم نجده فى فتاة عربية ، وهى إلى ذلك من أكرم البيوتات فى بنى عبس ، وذلك ما جعلنى أحرص عليها ، وأبادر فى طلبها .

وضم مجلس عمرو مالكاً ومسحلا ، فقال عمرو لمالك :

هذا الأمير – مشيراً إلى مسحل – ابن أختى ، وله من الجاه العريض والحسب الرفيع ، والثراء الواسع ، وكثرة الرجال والأتباع ، ما لم يكن لأمير غيره ، وقد رغب فى ابنتك ، وأحب أن يصاهرك ، وأن تكون عبلة ابنتك زوجه ، فهل لك أن تلبى رغبته ، وتستجيب إلى دعوته ؟

فقال مالك : لقد وجدت هذه الرغبة هوى فى نفسى ، وأزاحت عنى ما لازمنى من شقوة وضيم ، وإنى لأشرُف بتلك المصاهرة ، وأعدها من الأيام منحة وهدية ، وأنا فى هذا الأمر طوع أمرك ، ونازل على رأيك .

فشكر له الملك ومسحل ، وهنأه الحاضرون ، وانصرف كل إلى سبيله .

قال مالك لابنته :

لقد زوجتك الليلة من أمير لا يسامى ، وفارس لا يطاول ، تكونين به فى عزة ، وأطيب عيشة ، وأوسع نعمة ، وأكرم جاه ، وأعلى منزلة ، وربما سمعت عنه ، فهو مسحل ابن أخت الملك عمرو ، وذلك خير وأكرم من عنترة ذلك العبد الأسود ، الذى لا يلحقك منه إلا الخزى والعار .

فأجابته فى امتعاض وحسرة :

لا تزال فى عقوقك ، ولا تزال مصراً على كفرانك الأهل ، وجحودك الابن ، وتنكرك لمن أنقذ حياتك ، كلما حاق بها العطب ، وإنى لا أقرك على هذا الوضع الشاذ ، الذى لا يدل على سلامة الفطرة فيك ، وصلاح الأمور بين يديك .

فلم يأبه أبوها لقولها ، وأصر على زواجها ، وانتظر مسحلا يأتيه بمهرها ، إذ كان قد سافر إلى دياره ليحضره .

وكان مهراً عظيما ، جمع بين النوق والغنم ، والخيل والإبل ، والديباج والإبريسم ، حتى لفت أنظار العرب ، ولم يحرك فيهم العجب ، لأن جمال عبلة أبهر وأعجب .

وتسلم أبوها المهر ، وأخذ فى الاستعداد ليوم الزفاف ، والرحيل بها إلى ديار زوجها ، واتفقا أن يكون ذلك بعد ثلاثة أيام .

١٣

وصل عنترة إلى ديار كندة ليلا ، فقال لعروة :

لعل عبلة قد تزوجت فى هذه المدة الماضية .

فقال عروة :

ويخيل إلىّ أنها لن تتزوج من غيرك أبداً ، فقد رأيت بعينى غير مرة أنه ما رامها أحد إلا حلت منيته ، وسكن رمسه .

وقال شيبوب : وسأذهب كعادتى ، فأندس بين بنى كندة ، ثم أعود إليكم بما أرى .

فقال عنترة : أخشى أن يعرفك مالك ، فيسعى فى هلاكك .

فقال : سأتنكر فى زى النساء بحيث لا يعرفنى ، ولو جلست إلى جواره أحدثه ويحدثنى .

فقال عنترة : افعل ما شئت ، على أن تكون فى مأمن ، لا ينالك فيه ضر أو أذى .

فقال : لن أفارقك حتى ترانى متنكراً بحيث لاتعرفنى .

ونهض فلبس ثياباً لأمة من إماء شداد تسمى بانة وبرقعاً ، ووضع فى عنقه العقود والأجراس ، وحمل على كتفه قربة ، وأصبح كأنه أمة .

فاطمأن عنترة وودعه ، وهو لا يخشى عليه ، وارتقب هو وعروة عودة شيبوب بما يحمل من أنباء .

استمر شيبوب سائراً ، حتى كان فى مضرب العروس ، فألفاه حاشداً بالزائرات ، فاندس بينهن ، وجلس يشهد الرقص ، ويسمع الغناء ، ورنات المزاهر ، وضرب الدفوف ؛ ثم أراد أن يعرف الخيمة التى فيها عبلة ، ويسمعها صوته ، لتعمل هى على الاتصال به ، ليعرف منها كل شىء ، ويتلقى عنها مشورتها ، للعمل على إنقاذها ، فاحتال لذلك ، واندس بين المغنيات ، وشاركهن الغناء .

وكانت جلسته بالقرب من خيمة عبلة ، إذ عرفها بفراسته وفطنته، وبما تمتاز به من مظاهر الفرح ، وما سمعت عبلة صوت شيبوب ، حتى عرفته .

فأطلت من باب خيمتها ، فألفته جالساً بجوارها ، فقالت : ما أظن هذه الأمَة إلا عبسية !

فقال شيبوب : وبمن شبهتنى من نساء بنى عبس ؟

فقالت : ما إخالك إلا بانة أمة عمى شداد .

فقال : ما كنتها إلا لأصل إليك ، وما أنا إلا شيبوب .

وكشف عن وجهه برقعه، فسرت لذلك عبلة ، وسألته من فورها عن عنترة — وكان ذلك كله ، بعد أن أدخلته خيمتها ، على أنه أمة تبتغى إكرامها، ولم يكن أحد على مسمع ومرأى مما يجرى — فقال : عنترة فى البيداء المطلة على هذه الديار ، ومعه عروة بن الورد، الذى أصبح رفيقه وخليله ، وهما فى مائة فارس ، وقد أتى لاستخلاصك ، فماذا جرى معك ؟ وبماذا تشيرين ؟

فقصت عليه قصة أبيها وقصتها، وأعلمته أنها كانت مصممة على قتل نفسها ، قبل أن يأتى مسحل إليها ، إن لم يكن قد كتب لها الخلاص منه ومن أبيها ، ثم قالت : اذهب إلى عنترة فأقرئه السلام ، وانصح إليه ألا يهجم عليهم فى ديارهم ، لأنهم على استعداد تام ، وهم لا يحصون

عدًّا ، فإذا كان زفافى ، وقد غادروا بى هذه الديار ، فسيتخلف من يتخلف ، ويصحبنى من يصحبنى ، فلا بأس أن تهجموا حينئذ ، ولعله يقتل القادة ليفت فى عضد الأتباع .

١٤

لما التقت عبلة بشيبوب ، وأخبرها بمجىء ابن عمها عنترة طالباً خلاصها ومعه عروة ورجاله، ظهر على وجهها الفرح والسرور بعد أن ظلت أياماً لا ترقأ لها دمعة ، ورأت أمها تبدل حالها ، فأسرت إلى زوجها تغير حال ابنتها، وتشاوروا فى الأمر ، فقر رأيهم أن سبب هذا التبدل لا بد أن يكون مرجعه إلى أنها علمت مجىء ابن عمها عنترة ولعله جاء لأخذها .

وكان الاتفاق أن تحمل عبلة إلى زوجها على هودج يحيط بها بعض فرسان بنى كندة ،فقر رأى مالك وزوجه وابنه أن يبدوا مخاوفهم للملك عمرو خال مسحل .

فلما ذهب مالك إليه، وبلغه الخبر – ضحك وتندر ، وقال له :

إن خوفك من ابن أخيك يجسم لك المخاوف ! ومن عنترة حتى يجرؤ على الدخول إلى بلادنا ويتعرض لزوجة مسحل بن طراق فارس الفرسان ، وسيد الأقران ؟ !

فقال مالك : أيها الملك الجليل ! إنى أعلم عن ابن أخى ما لا تعلمه ، وإنى أرجو وألحف فى الرجاء أن ترسل إلى الأمير مسحل ليحضر ، ويتسلم زوجته ، وقد أعذر من أنذر .

فقال له الملك وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة : إنى أجيبك لما تطلب ليطمئن قلبك .

وأرسل الملك عمرو من فوره إلى ابن أخته ليفضى إليه بمخاوف صهره . وجاء الأمير مسحل فى ثلة من فرسانه .

٭ ٭ ٭

أعدت الهوادج ، وركبت عبلة مع أمها وهى بادية الانشراح ، ومعها فتيات من حى كندة فى هوادج ، وأمامها مسحل بن طراق زوجها المزعوم مزهوًّا بنفسه ، يفتل شاربيه ، والفرسان تصيح صياح الفرح والسرور ، والجوارى يضربن بالمزاهر والدفوف .

ولما أوغل الركب فى البيداء بدأت عبلة تتلفت يميناً وشمالاً كأنما تبحث عن شىء .

فقالت لها أمها :

ويلك يا عبلة ! ! لماذا تتلفتين ؟ ! ! هل بلغك خبر من ابن عمك ؟ وهل تتطلعين إلى مجيئه ؟ ! فقالت لها عبلة فى خبث : دعى عنك ذكر

هذا العبد المنحوس فلقد أراحنى الله من وجهه الأسود المشئوم ، وقد تعبت من تهجمه علىّ ، وتشتيتى بسببه ، وبعدى عن الديار ؛ وقد عوضنى الله خيراً منه وإنى لذلك أمتع نفسى بالنظر إلى زوجى الأمير مسحل بن طراق ، وأنعم بجماله وشبابه الغض !

ولم تكد تتم حديثها حتى سمعت صرخة ملأت السهل والجبل ، وانخلعت لها القلوب :

فصاحت بعبلة أمُّها ، وقالت لها : لقد كذبت على أمك ، ولقد ظهر افتراؤك علىّ بالخفاء — وها قدجاء العبد الأسود الذى كنت تنتظرينه ، وسوف يلقى حتفه بسيف هذا الأمير البطل ، مسحل بن طراق ! !

فقالت عبلة : نعم ! ! إنى كنت على علم بما تقولين ، وسوف ترين بعينيك رأس هذا المختال المعجب بنفسه طائراً !

وجاء الخبر مسحلا بأن فارساً أسود ، ومعه شرذمة قليلة من الفرسان ، اعترضوا الموكب .

وفى هذه الأثناء كان عنترة قد هجم على قائد زمام جمل عبلة وطعنه بالرمح فجندله ، وتسلم الزمام ، ونادى عروة وقال له :

اختر لنفسك : فإما أن تتسلم زمام بعير عبلة وأنا أدفع عنك الفرسان ، وإما أن أتسلم أنا الزمام ، وتدافع أنت عنى .

فقال عروة : إنى أختار الزمام .

فسلمه عنترة الزمام ، ووقف عنترة لاستقبال مسحل وفرسانه ، ولم يلبث مسحل أن جاء مزمجراً صائحاً :

يا أوغاد العرب ! خلوا عن الظعينة ! أنا مسحل بن طراق ! !

فلم يكد ينتهى من كلامه حتى كان عنترة قدامه ، وأخذا فى الكر والفر ، ورأى مسحل من عنترة ما أعمى بصره ، فضعفت قواه وكلت يداه !

ولما رأى عنترة منه التقصير تمطى فى ركابه ، وعاجله بطعنة فى صدره فنفذ الرمح منه ، وبرز أربعة أشبار من ظهره ، فوقع على الأرض كأنه النخلة السحوق ، لا يبدى حراكاً ؛ فارتعدت نفوس الفرسان من هول الطعنة ، وقال أتباع مسحل فى صوت واحد : شلت يمينك أيها العبد الزنيم ! لقد قتلت بطلا قل أن تجود بمثله الأيام !

وهجموا عليه من جميع الجهات ، فكال لهم عنترة الضرب كيلا وأجال رمحه فيهم ، ولم يلبث أن بدد شملهم ، فولوا الأدبار ، وركنوا إلى الهرب والفرار !

ووصل المنهزمون إلى بنى كندة ، وأخبروا الملك بما جرى ، وقد أرخوا عمائمهم وشقوا جيوبهم ، لموت ابن أخته ، فصاح فى قومه وأمرهم بسرعة الاستعداد لأخذ الثأر من الأعداء .

وسار الملك عمرو فى فرسان كندة وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف فارس ؛ يجدون المسير خلف عنترة وسرعان ما لحقوا به .

وما إن رأوه وصحبه حتى احتقروهم ، وعجبوا أن يقتل مثله مثل الأمير مسحل ، وقد كان يعد بألف من الفرسان الصناديد .

وبدأت الفرسان تخرج إليه وهو يقتنصها كما يقتنص الأسد الهصور الظباء ؛ وكثر الفرسان على عنترة وأثخنوه جراحاً ، ولكنه صمد لهم .

وحض عمرو رجاله على أن يهجموا بجموعهم على عنترة فيقتلوه ، فقوى عزمهم ، وجرأتهم كثرتهم ، فأحاطوا بعنترة إحاطة السوار بالمعصم ، وأحس هو فى نفسه ضيقاً وحرجاً ، وكان عنترة قد قال لعروة : دعنى أقاتل الأعداء ، فإذا رأيت الخطر أحدق ، فاهجم عليهم برجالك ، لتدفع عنى خطرهم ، فلما رأى عروة ومن معه أن الأعداء التفوا به وطرقوه هجموا على الأعداء من خلفهم صائحين : يا لعبس ! يا لعدنان ! ونزلوا عليهم نزول الصاعقة ، فكان الواحد منهم بألف فارس ، لكثرة من قتل ، وهول ما أتى وفعل ، فظن الأعداء أن من خلفهم جيشاً جراراً يأكلهم كما تأكل النار الحطب فانفضوا عن عنترة ، وأفسحوا له المجال ، فطاف عليهم بسيفه ، فانخلعت قلوب أعدائه ، وسمع عنترة إذ ذاك عمه مالكاً يصيح فى بنى كندة : أن اقتلوا هذا العبد كما قتل مسحلا سيدكم ، ولا ترهبوا هذه النجدة ، فإن فرسانها لا يجاوزون المائة ، فأسرع إلى مكان عمه ، وقتل من حوله من بنى كندة ، وهم أن يقتله فخشى العار والمذمة ، وأن يقول العرب : قتل عنترة عمه ، فأمسكه بيده ، وضرب به الأرض

ضربة موجعة ، وأسرع إليه شيبوب فكتفه وحمل ابنه عمرو على عنترة ، فرمى شيبوب جواده بنبلة ، فوقع على الأرض ، وانقض عليه شيبوب ، فأوثق كتافه ، وقرنه إلى أبيه ، وطلب بهما بطن الوادى ، وما زال عنترة وعروة ورجالهما يقتّلون من بنى كندة حتى جاء المساء ، فاعتصم بنو كندة بجبل هناك ، وكانوا قد سئموا وملوا ، وفزعوا من بطش عنترة وفتكه ، وقال عمرو : والله إن الجن لتفزع من قتاله ، ولكن يا قوم إن غادر أرضنا سالماً سخر منا العرب وعيرونا ، فقالوا : لا بد من تمزيق جسمه وإن قتل فيه ألف فارس منا ، وسمع عنترة رجال عروة يلوم بعضهم بعضاً ؛ وقال قائلهم : إن عنترة رجل عاشق ، والعاشق يرمى نفسه إلى المهالك ولا يحسب لذلك حساباً ، أما نحن فلا ناقة لنا فى الأمر ولا جمل . فأخذ عروة يلومهم على القعود عن نصرة الصاحب وهو ما لم تألفه العرب .

وأمر عنترة عروة أن يقدم الطعام لعمه وابنه عمرو ، وأن يسرى عنهما أحزانهما بالقول الطيب ، وشهى الحديث ، وقام هو إلى عبلة ليسألها عن حالها فقالت له : ما أظن جويرية قاست من الأشجان ما قاسيت ، فقال لها : والله يا ابنة العم لولا أنى خشيت ألا يفارقك الحزن على أبيك وأخيك ، ولولا أنى أخاف عليك من شماتة الحساد ، وأن يقولوا : إن عبلة قتلت أباها وأخاها ، من أجل حبها وهواها ، ومن أجل عبد أسود — لولا ذلك — لقطعت حبل أجلهما ، فقالت : كيف تبلغ هذه المنزلة من كرم

الخلق والبطولة النادرة وتسمى نفسك عبداً ؟! فقال : لا أنكر علىّ ذلك لأنى عبد حبك وهواك . وجعلا يتحادثان ويتسامران حتى زال عنه تعب كفاحه وجهاده .

وجاش الشعر فى خاطره فأنشد يقول قصيدته الميمية المشهورة :

يدعون عنتر والرماح كأنهـا   أشطان بئر فى لبان الأدهم
يدعون عنتر والسيوف كأنهـا   حدق الضفادع فى غدير ملجم

وفى الفجر سمع عنترة صهيل خيل وحركة ، فظن أن القوم عقدوا النية على الهجوم عليه .

واستعد للقائهم غير هياب ولا وجل ؛ ولكنه لحظ أن القوم راجعون على أعقابهم إلى ديارهم .

فعجب وسر !

وقال عروة لعل جائحة نزلت بقومهم .

وكان سبب ارتحال بنى كندة أن أتاهم نبأ أفزعهم ، وهو أن بسطاماً أغار على ديارهم فنهب أموالهم وسبى حريمهم ، فنادى عمرو فيهم بالرحيل وعرف ذلك منهم شيبوب متنكراً ، لأنه تبعهم وهم مرتحلون ، ثم رجع إلى أخيه وأخبره بما عرف .

ولم يمض وقت بعد ارتداد بنى كندة حتى ظهر غبار من خلفهم يدل على مجىء جيش جرار .

ففزع رجال عروة لظنهم أنه لعدو ، ولكنهم لم يلبثوا أن سمعوا القادمين يصيحون : يا لعبس ! يالعدنان ! فعلموا أنها نجدة لهم من قومهم ، فتسابقوا إليها ، فظهر أنها نجدة يقودها مالك وشاس — ابنا الملك زهير .

وكان سبب مجيئهم سلمى أخت عروة ، فإنها لما طالت غيبة أخيها أعلمت شداداً الخبر ، وأعلم شداد الملك زهيراً ؛ فأرسل الملك أولاده ومعهم الفرسان ، والتقوا بعنترة .

وهنا رأيت كيف كان يرقب القدر ، أكان يتخلى عن عنترة يهجم على القوم بمائة فارس ، وهم ألوف مؤلفة ، فى عددهم وبين ديارهم ، أم يمده بمعونة من عنده ، حتى يكشف الظلم ، ويقلم أظفار الأثرة والتحكم ؟ ذلك ما يفكر فيه عروة ، وما يتوقعه ، على هدى من خبرته ، وما يعرفه من تاريخ عنترة ، وكفالة القدر له ، إلى الحد الذى يبدل من أجله العدو صديقاً ، والشانئ محبًّا وخليلاً .

فكر عنترة فى الأمر ولاح له النصر من ثلاث نواح : من ناحية عزمه وسيفه ، ومن ناحية بسطام وجيشه إذ كان يعرف ما يضمره لبنى كندة ، ومن ناحية أبناء الملك زهير وجموعهم ؛ فقد عرف زهير أمره ، كما عرف

بسطام خبره ، فهب رجالهم وفرسانهم لنجدته ، وقهر بنى كندة ، ليستخلص عبلة لنفسه ، ويعود بها إلى ديار عبس فى فرح وبهجة ، وذلك ما كان ؛ فلم يتحرك جمع العروس إلى ديار مسحل ، حتى هجم عنترة بجموعه ، وأعملوا فيهم سيوفهم ، وانتهت المعركة بقتل مسحل ، وأسر مالك عمه ، وعمرو ابنه ، واستخلاص عبلة وتشتيت شمل كندة ، وأن غنموا مغانم كثيرة .

١٥

لم يبق لبسطام وفرسانه ، ولا لأبناء زهير ، وعنترة وعروة ، حاجة فى البقاء ، بعد هذا النصر العزيز ، فقرروا العودة إلى الديار ، ولكن عنترة رأى أن يذهب إلى بنى غطفان ، يقيم فيهم بعيداً عن عمه مالك ، حتى لا يفارق عشيرته مرة أخرى ، فراراً بعبلة ، على ألا تتزوج من أحد ، ما دام غير راض عن زواج عنترة منها ، وما دام عنترة حيًّا ، فقال بسطام :

إن كان لا بد من الإقامة بعيداً عن ديارك ، فليكن فى ديارنا ، فلك علينا من المعروف ما جعلك أحب إلى بنى شيبان من أنفسهم ، وهى إلى ذلك قريبة من ديار بنى عبس ، وفيها تستطيع أن تقف على أخبار عبلة حيناً بعد حين .

فقال شاس لمالك أبى عبلة : أرأيت كيف يفتدى ابن أخيك كرامتك

واستقرارك بين أهلك ، بغربته ونزوحه عن مهبط رأسه ، فى معزل عن عشيرته وأهله ، فى الحال التى حق عليك فيها غضب الناس وألمهم ، واستنكارهم لما تجره علينا من بلاء ونصب ؟ !

فقال مالك بن قراد : أرجئ الحديث فى أمرى وأمر عنترة ، حتى نكون بين يدى الملك زهير .

فقال عنترة : رضيت بذلك ، ولن أكون حاضراً ، حتى تستمتع بحرية القول فى غيبتى ، وسأكون مع بسطام فى دياره .

° ° °

وسار كل إلى سبيله ، فأبناء زهير ومن معهم إلى أحيائهم ، وبسطام وعنترة إلى بنى شيبان ، ولما وصل أبناء زهير إلى أرض قريبة من بنى الريان رأوا أن ينزلوا فيها ، ويصيدوا ما يرغبون من ظباء وغيرها ، وكان مالك بن زهير قد ركب جواده ، وخرج للصيد ، فرآه ظليم فجفل ، فتبعه مالك ، وهو مصر على ألا يُفلت من يده ، ولج فى الصحراء خلف الظليم ، وهو لا يشق له غباراً ، حتى تعب جواده ، فنزل عنه ليريحه .

وحانت من مالك التفاتة ، فوقع بصره على بدوى بجانب ناقة باركة ، وكان يسمى فياضاً ، ومن خلفه أعرابية ممسكة بزمام فرسه ، فأشارت إلى مالك ، فأدرك ما تبتغيه ، من نجدة ومعونة ، ولكنه تمهل حتى يستريح جواده ، فظنت أنه لم يفهم إشارتها ، وضربت جواد البدوى على وجهه

تستنفره ، فجفل وفر ، فصاحت بالبدوى أن الحق الجواد ، قبل أن يختفى منك فى معامى الصحراء ، فلطمها على وجهها وأسرع يعدو خلفه ، فتقدمت إلى مالك تستغيث به ، فسألها عن حالها ، فقالت :

كنت أنا وابن عمى ، وهو زوجى ، فى طريقنا إلى أحيائنا ، فلقينا هذا البدوى ، فقتل بعلى وأسرنى ، وأنا معه على نحو ما ترى من الهوان ، فهل لك أن تنقذنى من يده ، وتصون حرة غدرت بها الأيام ، وكانت على جمال رائع .

فقال مالك : لا تخافى ولا تحزنى ، وأبشرى بسلامتك .

ورجع البدوى على جواده ، فألفاها بين يدى مالك واقفة تحدثه ، فأقبل عليه فى غضب، وقال :

ويل لك أيها العربى ، كيف تكلم من كانت فى حوزتى ؟ ! فسلم ما معك، قبل أن تحل بك منيتك .

فنظر إليه مالك فى سخرية قائلاً :

تأتون الدنية ، وتعتدون على النساء ، ولا تخشون العاقبة ؟ ! !

وكان البدوى شديد المراس ، قوى البأس، وهجم عليه مالك ، ولكنه لم ينل منه شيئاً ، ولم يستطع أن يصرعه ، فوقع فى يد البدوى أسيراً ، وأراده على أن ينتسب قبل أن يصيبه العطب ، فقال :

أنا مالك بن زهير ، ففرح البدوى وقال :

الآن وجدت فيك طلبتى ، ولست بمفلت من يدى ، حتى تسلم لى عنترة بن شداد ، أشفى بقتله صدرى ، وأطفئ به غضبى ، وأنال بغيتى .

فقال مالك : وما بينك وبينه حتى تطلبه ؟

فقال البدوى : خطبت ابنة عمى ، فجعل مهرها رأس عنترة ، لأنه قتل ابنه ، وفجعه فيه ، فخرجت فى طلبه ، فلقيتنى تلك الأعرابية وزوجها ، فقتلته وأسرتها ، وقد وقعت فى يدى ، وبك أنال ما خرجت من أجله ، فإما مكنتنى منه ، وإما أسكنتك رمسك .

فلم يجد مالك إلا أن يستعصم بالحيلة ، فقال :

يبدو لى أيها البدوى أنك موفق فيما ابتغيت ، فقد يسر لك القدر أمرك ، وقرب البعيد من أجلك ، ودفع عنك نصب السفر إلى عنترة ، وأنت واجده هنا فى أرض الرباب ، وليس معه إلا خمسة من الفرسان ، أنا أحدهم خرجت للصيد ، فعدوت خلف ظليم ، حتى كنت فى ذلك المكان ، فإذا كنت جاداً فى طلب عنترة ، فسر إليه، واقض ما أنت قاضيه .

فقال البدوى : ولك علىّ أن أطلق سراحك وأخلى سبيلك ، إن كنت صادقاً فى قولك ، وسأرجئ الرحيل إليه إلى الغد ، لنستريح هذه الليلة .

وجلسوا يتحدثون ويأكلون ، ومالك يقص عليه من أنباء عنترة وعبلة ، وأبيها مالك وتنقله بين القبائل فراراً وهرباً ، حتى غلب النوم عليهم .

أما الأعرابية فقد أسفت أشد الأسف إذ كانت سبباً فيما وقع فيه مالك من الأسر، فلم يجد النوم فى عينيها مضجعاً، ولما رأت البدوى قد غرق فى نومه، عمدت إلى مالك ففكت قيوده، وقالت:

اركب جوادك، وانشد سبيلك، وانج بنفسك، واتركنى أنا وهذا البدوى، يصرفنا القدر كما يشاء.

فقال: الموت فى سبيل الواجب حياة، ولن أتركك حتى أنجيك ببدنك وروحك، وتكونى فى أمن وسلام، وإن شربت من أجلك كأس الحمام.

واستيقظ فياض البدوى إذ ذاك، فوجده قد فك وثاقه، والأعرابية بجواره تتحدث إليه، فقام وحبسه فى قيوده، وأوسع العربية ضرباً، فقال مالك:

ما أردنا بك سوءاً وأنت نائم، وسواء علينا أكنا فى القيود، أم لم نكن فيها، ما دمنا قد اتفقنا على الرحيل، إلى حيث عنترة ينتظرنا.

فقال البدوى: ذلك خلق الملوك، ولهذا سأبقى عليك، حتى نلتقى بعنترة فى مكانه.

وكان الصباح قد أطل بنوره، فركبوا إلى عنترة، وبينما هم سائرون، رأوا فارساً يعدو خلف غزالة تطلب مهرباً، وهو من خلفها كأنه شهاب ينقض، وما لبث أن أمسكها، فعجب البدوى، لسرعة عدوه، وشدة

عصبه؛ وبينما هو يحدق فيهما نظره، إذ طلع من وراء ذلك الفارس عشرة فرسان فى أسلحتهم وعلى جيادهم، ومن بينهم فارس أسود، كأنه البرج المشيد، ولما رأوا البدوى قصدوا إليه، وتقدم منهم ذلك الفارس إلى البدوى ليقف على شأنه، فعسى أن تكون له حاجة فى تلك الفيافى المنقطعة، ولكن البدوى أعجله بسؤاله عن نسبه، لعله يدفع عنه تلفه، فقال الفارس:

ويلك!! ما أعمى بصرك!! وأخبل فؤادك!! أنا كاشف الغمم، ومبدد الظلم، ودافع النوائب، وساحق المصائب، أنا عنترة ابن شداد.

ومن تكون أنت؟!

ومن هذا الأسير الذى معك؟!

ومن تكون هذه الأعرابية النائحة؟!

فقال فياض البدوى: أهلا بحامية عبس، ومنية النفس! أهلاً بمن جئت فى طلب رأسه، مهراً لبنت عمى التى طلبت يدها!

فقال عنترة: هذه قصتك معى عرفتها، ومن يكون هذا الأسير الذى معك؟!

فقال: ذلك مولاك، وابن مولاك، مالك بن زهير.

فثارت ثائرة عنترة، فى دخيلة نفسه، وحضر بسطام حينئذ فسأله عن

شأن هذا البدوى ، فقص عليه قصته ، فقال بسطام :

لله درك من فارس بعيد النظر ، فقد قدرت فصدق منك التقدير !

١٦

خشى عنترة على أبناء الملك زهير أن يلقاهم أحد فى سبيلهم ، فينغص عليهم رحيلهم ، وربما أصابهم بمكروه ، فأشار على بسطام أن يتبعهم من خلفهم ، حتى يصبحوا فى أرض لا خوف عليهم منها ثم يعود مع بسطام إلى دياره ، وذلك ما قدره وصدق فيه ، فأشار عليه بسطام أن يترك له هذا البدوى يقتله ، ويغرقه فى دمه ، فقال :

لن يكون ذلك ، ولن يكون هذا البدوى إلا طعاماً لحسامى ! ثم ضربه ضربة أطاحت برأسه ، وضرجته بدمه ؛ وأقبل على مالك ، فحل قيوده ، واحتضنه إلى صدره .

أما الأعرابية فقد أركبها جواد البدوى ، وأعطاها ما تحتاجه من زاد وطعام ، وودعها إلى ديارها آمنة .

وأما مالك فقد صحبه عنترة فى سيره ، وبسطام وصحبه معه ، حتى يجتاز به مخاوف الصحراء ، ويصبح فى أرض لا يرى فيها مكروهاً ، ورجاه ألا يذكر شيئاً من محنته هذه لأبيه ، حتى لا يحزن من أجله ، وتبقى منزلته عالية بين قومه ، وقال عنترة :

ولقد خشيت مع هذا أن يكون عمى مقيما على ضلاله القديم ، فيجر

على الجماعة فى سيرها من الخطوب ما لا قبل لها باحتماله .

وما كاد يتم قوله ، حتى أشرفوا على مرج قد صبغ بالدم ، وبعثرت على أديمه جثث القتلى هنا وهناك ، فقال عنترة :

أغلب الظن أن ما كنت أخشاه على بنى عبس قد وقع .

فنزلوا فى هذا المكان ، وجعلوا يتعرفون القتلى ، فهذا فلان ، وذاك فلان ، وظن عنترة أن عبلة قد أسرت ، وأخذت إلى حيث لا يعرف لها مقراً .

وبينما هم يجولون بين الجثث إذ سمعوا أنين رجل أشفى على الموت ، فدلفوا إليه مسرعين ، فألفوه مالك بن قراد ، والد عبلة ، فأسرع عنترة ، وضمد جراحه ، وحبس دمه ، حتى لا يستمر نزيفه ، وسقاه قليلاً من الماء ، فلما أفاق من غشيته ، فتح عينيه ، على مالك بن زهير ، وعنترة ابن أخيه ، وشيبوب ومن معهم ، فابتدره عنترة قائلاً :

لقد كنت أخشى عليك هذه العاقبة ، وما كنت أود أن ينالك هذا المكروه .

فقال عمه : الآن عرفت أيضاً أنى ظلمتك وأسأت إليك فى حياتك ، فاقبل خالص ودى ، وصفاء سريرتى ، واحملنى إلى ديارى ، وتجاوز عما فرط منى ، فلن ترى بعد إلا رحمة الأب ، وحنان الوالد ، وان أستمع بعد هذا لواش بك ، أو حاقد عليك .

فقال عنترة : ولن ترانى على الدوام إلا ابناً باراً مطيعاً ، ولكن من فعل

هذا بكم ؟ وأين ولداك عمرو وعبلة ؟ وأين بقية الرجال ؟

فقال : جميعهم فى قبضة أنس بن مدركة الخثعمى ، أغار علينا ، ونحن فى أشد التعب من مسيرنا ، بألف فارس أو يزيدون ، فقتل منا من رأيت ، وساق الباقين أسرى ، وفيهم عبلة تندب حظها ، وتبكى قومها وأهلها ، وترجو أن يصل خبرها إليك ، حتى تلقى النجاة على يديك .

* * *

سار أنس بن مدركة الخثعمى حتى وصل إلى مياه بنى هلال ، فأمر جنده أن ينزلوا عندها ، ويقيموا أياماً فيها ، وأن يكرموا الأسرى بإمدادهم بالطعام والشراب ، فلم يضرب عن الطعام إلا عبلة ، التى جعلت زادها البكاء والنواح ليلاً ونهاراً ، فسأل أنس عن تلك الفتاة الباكية النائحة ، فقيل إنها عبلة ابنة عم عنترة ، التى خلد ذكرها بشعره ، وعطر الجزيرة بجميل وصفها ، وكريم مديحها ، وهى مضربة عن الطعام ، وليس لها غذاء إلا ما سمعت من النواح والبكاء ، فأمر بإحضارها بين يديه .

وما كاد يراها حتى خفق قلبه خفقة الحب والغرام ، وكان متكئاً فجلس وقال :

ومن قتل من رجالك فى تلك الموقعة ؟

فقالت فى صوت يقطعه الحزن والبكاء : أبى الذى عمادى عليه ، واعتدادى به .

فقال لا راد لما وقع ، وسأخفف عنك مصيبته .

وأمر بإحضار أولاد عمها العبسيين ، ليخطبها منهم ، ويجعل مهرها فك رقابهم ، وتخلية سبيلهم ، ولما حضروا قالوا :

أمرها الآن بيد عمرو أخيها ، ونحن له خاضعون ، وتجده موثقاً بالقيود والأغلال فى غمار الأسرى من الفرسان والرجال .

وكان عروة بجانبه ، فأشار عليه أن يرضى بزواجها منه ، إن كان يود خلاص بنى عبس من يده .

فقال : كيف أغدر بعنترة ، بعد أن ذقنا الويل ، وأشرفنا على الهلاك غير مرة ، ولم ينج أحد منا إلا بسيفه وسطوته .

فقال عروة : لقد عرفت من تاريخها أنه لا يخطبها أحد غير عنترة حتى يدنو أجله ، ويحل فى قبره ، وعليك أن تشترط على أنس ألا يدخل بها ، إلا فى دياره ، وبعد أيام من وصولهم ، لتستريح فيها ، وتسترد نضارتها ، وسترى عنترة قد حضر قبل أن تزف إليه ، فيسفك دمه ، ويشتت شمله ، ويخرب دياره ، ثم نعود إلى ديارنا غانمين .

وطلب أنس من عمرو أن يزوجه أخته ، فلم يحر جواباً ، واعتصم بالسكوت الذى ينم عن تفكير وحيرة ، فقال أنس :

مالى أراك ساكتاً ؟ ألست كفئاً لأختك ؟

فقال عمرو : بلى أيها السيد الكريم ، ولكن أختى زوجها أبى

لعنترة ابن عمى ، وقبض مهرها ، وأخشى إن عدت إلى ديارى ، أن يقتلنى شر قتلة ، وما من أحد يستطيع أن يدفع شره ، فهو فارس فى حسامه الموت رابض .

وكان أنس مغرماً بالفروسية ، حتى امتزجت بلحمه ودمه ، وأصبحت من عناصر فطرته ، ورغب أن يلتقى بعنترة ، الذى يقطر الموت من حسامه فرأى أن يرجئ أمر زواجه ، وأن يبقى الأسرى ، حتى يأتى عنترة لإنقاذهم وتخليص عبلة ، وكان قد طمع فى التغلب عليه وقهره ، لتزداد هيبته فى قومه ، ومن أجل ذلك أمر أن تكرم عبلة ، وأن تهيأ لها أسباب الراحة والهناءة ، حتى تعود إليها نضارتها ، فتكون له خير زوجة ، ثم استأنفوا مسيرهم إلى الديار .

وما مضى بعض يوم ، حتى أرسل أنس مائة فارس ، يتبينون ما تنكشف عنه الغبرة التى لاحت لهم من خلفهم .

١٧

خلف عنترة مالك بن زهير ، وأخاه شيبوباً ، عند مالك عمه ، ونهض هو وبسطام ، ومن معهما من الفرسان ، مقتفين آثار أنس وقومه ، حتى التقوا ببعثة الفرسان التى أرسلها أنس ، لتنقل إليه نبأ هذا الغبار الذى

رآه يقتفى آثارهم .

وكان قائد تلك البعثة ، ابن عمه مبادر بن غيلم ، فتلقاهم عنترة وبسطام وحدهما ، ونزلا فيهم نزول القضاء ، يوزعان بينهم عاجل الفناء ويحصدانهم حصد الهشيم ، فهذا قائدهم قد صرع ، وذلك جمعهم قد تمزق ، ففر بقيتهم إلى أنس ، وقلوبهم تكاد تثب من صدورهم فزعاً ورعباً ، فعجب أن هزم جماعته المائة ، فرسان أقل منهم عدداً ، فقالوا :

ما فعل هذا بنا إلا فارس واحد ، لا نخاله إلا شيطاناً مارداً ، فلقد كان يخطف الفارس بيده ، ويضرب زميله به ، فيقضى عليهما ، ولو لم نركن إلى الفرار ، لحل بنا البوار ؛ فقال أنس وهو يتميز من الغيظ :

لا أكاد أصدق ما تقولون ، ويبدو لى أنه عنترة الذى سمعت حديثه ، حضر فى إثر عبلة ، وسأريكم ما أنا فاعل به ، فقالوا :

وليكن ذلك غداً ، فعسى أن نجد مخرجاً لا نلقى معه حرجاً .

ولما كان الغد ، سار أنس فى مقدمة جيشه ، ليقضى على عنترة ، ويأخذ بثأر ابن عمه ، وكان عنترة قد أصر أن يبدأ الحرب بقتله ، حتى يلقى الرعب فى جمعه وجنده ، ليكون هذا الرعب قوة فى جمع عنترة المعدود ، وضعفاً فى جمع أنس الذى لا يحصى عداً .

وكان أنس متحفزاً للقائه ، متحصناً بقوته ، ومن يتبعه من الألوف المؤلفة ، لينال بقهره وإذلاله فخراً لم ينله عربى قبله ، ومن أجل ذلك تصدر

جيشه ، وطلب منازلة خصيمه، فتصدى لأنس فارس الحلبة ، وطارده مطاردة لم تكن فى حسبانه، وبارزه مبارزة شخصت لها أبصار الطائفتين ، وتعلقت لها الأنفاس فى الصدور ، ولم تطل المبارزة حتى انتهت بجرح أنس ، وسقوطه على الأرض مقيداً بإصابته ، لا يستطيع فراراً ولا هرباً .

وحينئذ اقتتلت الطائفتان ، واختلطت الجماعتان ، إحداهما تثأر لقائدها أنس ، والأخرى تنهج نهج عنترة ، فى قهر الأعداء ومحقهم ، حتى أثخنت طائفة أنس جراحاً ، وأشبعت رجالها قتلا وتشريداً ، ففرت هاربة مهزومة ، مخلفة ما معها من متاع وخيل .

أما أنس فقد انتهز فرصة قتال عنترة ، ليشد أزر طائفته ، واتكأ على البقية الباقية من قوته ، وركب جواده ، وفر هارباً ، لا يلوى على شىء .

وأحاط فرسان عنترة وبسطام بهما فرحين بنصرهم ومغانمهم ، وفرح عنترة بنجاة عبلة ، وأخبرها أنه لا يغفل عنها ما ترددت فى صدره أنفاس الحياة ، ففرحت به ولكنها أبدت ما يكنه صدرها من الحزن على أبيها ، الذى اعتقدت أنه أسلم روحه إلى بارئها ، فكشف عنها غمة حزنها ، وأخبرها أنه لا يزال حيًّا ، وأنبأها نبأه ، فزال ما كان يساورها من هم وغم ، ثم أنفذ عنترة من يحضر إليه أنساً ، فلم يجدوا له أثراً ، فقال عنترة :

ليتنى أجهزت عليه ، ولم أجعل له سبيلا إلى الفرار والهرب ، فقيل له :

لا تأس على هربه ، وكأنك افتديته بما غنمنا من هذه الأموال .

فابتسم عنترة ابتسامة الظافر الكادح وأمر أن تساق الأنعام وتنقل الغنائم إلى حيث عمه ومالك بن زهير وأخوه شيبوب ، وهناك التقوا فى أرض الرباب فى فرح وابتهاج ، وتلقاه عمه بالشكر والثناء .

وأجابه عنترة :

أنت أجدر بهذا الثناء ، وما أنا إلا ابنك وعبدك ما عشت بين الأحياء .

ولما أشرق الصباح ، اقتطع عنترة من المغانم نصيباً له قيمته ، وأهداه إلى بسطام شاكراً جهاده ووفاءه وحسن صحبته ، ورغب إليه أن يذهب إلى دياره ، فقال بسطام :

كيف أذهب إلى ديارى قبل أن تدخل بابنة عمك ؟ ! فقال عنترة :

لن أدخل بها حتى يشفى عمى ويذهب عنه ما به من سقام ، فإذا تم ذلك ، وبقى على وفائه ومحبته ، أنفذت إليك من يخبرك ، لتحضر أنت ومن تحب من رجالات قومك ، ثم ودع بعضهم بعضاً ، وأخذ كل سبيله إلى موطنه .

وفرح زهير بقدومهم ، وقصوا عليه ما كان ، ولم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلا أتوا عليها ، فى تلك الفترة التى قضوها فى الجهاد ، من جراء مالك ابن قراد ، فزاد عنترة فى نفوسهم محبة وعزة ، واطمأن كل فى داره ، يتقلب على مهاد الدعة والهناءة .

١٨

حضر مالك بن قراد وعبلة فى ركب مالك بن زهير وعنترة ، يحملون الظفر والفخر ، والمال الوفير الذى غنموه من الأعداء ، واحتفى المليك بهم وابتهجت الأحياء بقدومهم ، فكان لهذا بليغ الأثر فى نفس عمارة الوهاب ، واعتقد أن قد حيل بينه وبين ما يشتهى ، وأن النجم أقرب إليه من عبلة ، فعكف فى داره كئيباً حزيناً ، وعرفت أمه مثار حزنه ، فاستدعت ابنها الربيع وقالت :

إن أخاك هذا يقتل نفسه همًّا على عبلة ، وأنت تعلم ما وصل إليه عنترة من منزلة فى قومه ، وأن القبائل أصبحت تحبه ، وتلتف من حوله ، وتشنأ من يشنؤه ، وتحب من يحبه ، ولا أدرى كيف يبقى أخوك على شغفه بها ، وهو لا يستطيع الوصول إليها وقد بذلتم ما تملكون من كيد ومحال ، ولا تنالون إلا الخيبة والفشل والخزى والنكال ، فهل يرضيك أن يحزن أخوك على أمر جاهدتم فيه حق جهاده ولم تنالوه ؟ ! ومتى كان الحزن وسيلة إلى نيل مأرب ؟ ! وهب عبلة تخطفتها المنية ، فماذا كان فاعلاً ؟ !

فقال عمارة ، وكان حاضراً :

ليتها لم تعد إلا جثة هامدة ، أو سكنت قبرها فى دار غربتها ، ولم يعد عنترة إلا حاملاً نبأ هلاكها !

فقال الربيع :

إن كان يرضيك قتلها فالأمر علينا يسير ، فهون على نفسك ، ودعنا ندبر أمراً لاغتيالها .

فشكر له عمارة عطفه ، وحسن معونته ، وقام كل إلى شأنه .

١٩

رأى الربيع بعد تفكير طويل ، ألا وسيلة إلى قتل عبلة إلا إذا انتزعها وحدها من بين أهلها باختيارها ورضاها ، وعلى غير علم من أحد ، ليخفى على الناس أمرها ، ويجهلوا مقرها ؛ فجمع عبيده وإماءه ، فى ناحية مكنونة من داره ، وقال :

ما يجرى بينى وبينكم الآن من حديث فهو سر تقفلون عليه صدوركم ، فقالوا :

سمعاً وطاعة .

فقال : من منكم له صلة متينة بواحدة من إماء بنى قراد ، أو أحد من عبيدهم ؟

فقال أحدهم :

يا مولاى ! إن فائقة أمة عبلة تحبنى حبًّا جما ، ولكنى أعرض عنها خشية المكاره والمتاعب .

فقال الربيع :

لا تخف وسأدفع عنك كل مكروه ، ولن يجرؤ أحد أن ينالك بضر ما دمت رقيباً عليك وحاميك ، فعليك أن تبادلها المحبة ، وتحتال فى أن تحضرها إلى ديارنا حيناً من الزمن ، وسأشير عليك بما تفعله .

فقال : تلك أمنيتها ، وكثيراً ما عرضت علىّ أن تهرب إلىّ حاملة معها ما تستطيع حمله من مال عبلة .

فقال الربيع :

حينئذ سهل علينا الأمر وبلغنا المراد ؛ فاعمل من الآن على إحضارها ، وارتقب ما أشير به عليك ، وما أكلفك القيام به .

ثم أذن لهم فى الانصراف .

• • •

اتصلت فائقة بصاحبها على عادتها ، ففتح لها صدره ، وأغراها بالحضور إليه ، فأسرعت إلى إجابته ، ودبرت أمر هربها ، واستطاعت أن تخرج سراً إلى حيث يقيم صاحبها الذى استقبلها أحسن استقبال ، ورحب بها أجمل ترحيب ؛ ولم يلبث الربيع أن أعد لها خيمة بجوار بيته ، وهيأ لها فيها وسائل المعيشة الهنيئة ، ثم زارهما ، فأظهر من السرور بها ما جعلها مطمئنة مسرورة ، وقال :

لعلك لاتزالين تذكرين هذا العبد ، وتذكرين ما بينك وبينه من محبة وود.

فقالت فائقة :

أنا ملك يمينه ، ولن أعصى له أمراً .

فقال الربيع : وهنيئاً لكما هذا الإخاء ، وتركها وانصرف .

وكان للربيع صديق حميم من بنى شيبان ، يدعى مفرج بن هلال ، فأرسل إليه أن يبعث مع رسول عشرة من فرسان أهله الخلصاء ، فأرسلهم معه ، وعلى رأسهم سنان ابن عمه ، وأمرهم أن يكونوا فى طاعة الربيع ، وألا يعصوا له أمراً ، مهما يكن شأنه .

ودخلوا دار الربيع ليلاً ، وعكفوا فيها ثلاثة أيام مكرمين ؛ وفى اليوم الرابع قال سنان للربيع :

ما حاجتك إلينا ، فقد أمرنا أن نطيعك ، وننفذ إرادتك .

فقال الربيع : سأطلعكم على ما أريد ، بعد وقت غير طويل .

ثم خرج وأمر عبده أن يحضر فائقة ، فأحضرها من خيمتها ؛ فقال لها الربيع :

لى عندك حاجة ، إن أنت قضيتها ، فككت رقبتك ، وزوجتك من صاحبك ، وكفلت لكما عيشة راضية .

فقالت فائقة :

لك الأمر وعلىّ الطاعة .

فقال الربيع : إن عمارة أخى يشتهى أن يرى عبلة ، فهل تستطيعين



عبلة تخرج إلى الغدير مع فائقة

أن تمكنيه من رؤيتها ولو مرة واحدة ؟

فقالت فائقة :

ذلك أمر لا أجد فيه صعوبة .

فقال الربيع :

وكيف ذلك ؟

فقالت فائقة :

إن عنترة لا يأتينا من بيت مالك بن زهير إلا فى الثلث الأخير من الليل ، وسأخبرها أن عنترة يطلب إليك أن تخرجى الليلة إلى الغدير ، ليتحدث إليك فيما يريده من الشئون ، وإذا ما خرجت بها تزيا أخوك عمارة بزى العبيد وجلس معها ، وأشبع نظره منها .

فسر الربيع وناولها قرطاً من الذهب تقديراً لها ، فقالت :

إن أخذته معى فضح أمرى ، وارتابت فى صدقى ، وإذا كنت مصراً على إنعامك ، فلتحبسه عندك وديعة .

وذهب الربيع إلى سنان وأخبره أن يكمن الليلة فى مكمن بالغدير ، فإذا ما أقبلت عليك جارية سيعرفك بها عبدى هذا ، فخذها مكتوفة إلى دياركم حتى ألحق بكم ، فنقضى فيها ما نرى .

فقال سنان :

وما ذنب تلك الجارية ؟ ! قال الربيع : سأقص عليكم قصتها فى

دياركم، وسيكون الحكم عليها مستمداً من مشورتكم ورأيكم ، بعد أن ينكشف أمرها لكم .

قال سنان : لك ما أردت وعلينا أن نطيع .

أطلق سراح فائقة، وعادت إلى صواحبها فى بيت عبلة ، واعتذرت لهن عن سبب تخلفها بعض الوقت ، ونقلت إليها رغبة عنترة فى لقائها الليلة على الغدير ، ليتحدث إليها ،وتتحدث إليه ؛ فانتظرت عبلة حتى انقضى أكثر من نصف الليل ، ثم خرجت إلى الغدير وهى ضاحكة الثغر ، وضاءة الجبين ، بما ستجده من الهناءة فى تلك الخلوة الشهية ؛ وصحبتها إلى الغدير أمتها فائقة ، وأمتها الأخرى رابعة ، وكان قد أهداها إليها عنترة من مغانمه، فى حربه مع أنس بن مدركة الماضية ، وكانت تلازمها كأنها ظلها ، فلا تفارقها أينما حلت .

وصلت عبلة إلى الغدير ، ولم تكد تأخذ جلستها حتى هجم عليها سنان فى فرسانه، فأوثقوها وأردفها خلفه على ظهر فرسه ، وساروا إلى ديارهم مسرعين، وخلفوا الأمتين مقيدتين لا تستطيعان الانتقال من مكانهما ، وانتهى أمر عبلة إلى الوقوع فى أسر بنى شيبان .

ولما رجع عنترة إلى داره فى موعده لم يجد عبلة فى انتظاره على عادتها ليحييها تحية المساء وهو مار بها ، فظن أنه قد شغلتها الشواغل عن الانتظار فلزمت خدرها ، فأيقظ أباها وسأله عنها ، فقال :

فى خدرها نائمة ؛ وكانت تنتظر عودتك .

فقال عنترة :

أظن الدار خالية منها ؛ وقاموا جميعا بالبحث عنها ، فلم يجدوها ، ولم يتبينوا لها مقراً ؛ وطار الخبر بين الأحياء ، فهاج القوم ، وركبوا خيولهم ، واندفعوا إلى البرية فى كل مسلك كالسيول الجارفة .

وجد القوم عند الغدير رابعة وفائقة ، فاطمأنوا بعض الاطمئنان ، وظنوا أن السبيل إلى عبلة أصبح ممهداً ميسوراً ، ففكوا قيودهما وسألوهما عن عبلة ، فقالت رابعة :

أوثق كتافها فرسان عشرة ، وأردفوها خلف كبيرهم ، وألقوا بأنفسهم فى غمار الصحراء ، إلى حيث لا أعرف لهم غاية .

فقالوا :

وكيف أتيتم إلى هذا الغدير ليلاً خفية وبغتة ؟ !

فقالت رابعة :

جاءت لنا تلك الأمة الخائنة الكاذبة — وأشارت إلى فائقة — وأسرت إلى مولاتى عبلة أن عنترة يريدها الليلة فى هذا المكان ، لأمر فيه صلاح العائلة ، ويجب أن يأخذ رأيها فيه فى هدوء وخلوة ؛ وما كدنا نصل إلى هذا الغدير حتى خطفت مولاتى ، وألقى بنا على الأرض فى هذه الحالة البئيسة .

فنظر شداد إلى فائقة ، نظرة تتقد غيظاً وقسوة ، وقال :

ومن أمرك أن تفعلى هذا ؟!

فقالت فائقة :

خذ لى الأمان من عنترة ، وأنا أقص عليكم قصتها .

فشفع شداد فيها عند ابنه ، فأعطاها عهده وأمنه ، ثم بينت لهم ما دبر الربيع بن زياد ، وما أشار به عليها ، حتى كان ما كان .

قال عنترة :

لولا ما للملك زهير علينا من الولاء والمهابة ، والوفاء والمحبة ، لسحقت بنى زياد سحقاً ، وجعلتهم أحاديث فى كل دار وحى .

وفجأهم رسول زهير يدعوهم إلى حضرته ، لأنه نمى إليه ما كان من أمر عبلة .

فلبوا الدعوة مسرعين .

وقال زهير بعد أن انتظم عقد الجماعة :

ما رأيكم فيما حل بعبلة من مغادرتها بيت أبيها ليلاً ؟

فقال مالك :

لا يد لها ولا لأحد منا فى خروجها ، ولا فيما وقع بنا هذه السنوات ، من النوائب والنكبات ، وإنما الربيع بن زياد هذا – وأشار إليه – هو الذى دبر ومكر ، وأخرج عبلة من خدرها على تلك الحال التى

تقصم الظهر ، وهو الذى يعد المصائب لنا ، نتلقفها واحدة فى إثر أخرى .

ولما وجد الربيع مالكاً على غير خطته ، وأنه انسلخ من مذهبه ، وأن الجمع حانق غاضب ، لجأ إلى دهائه ومكره ، فقال فى هدوء البرىء المطمئن :

ومن أنبأكم أن لى يداً فى خروج عبلة من بيت أبيها ليلاً ؟!

فقال مالك : جاريتها فائقة لم تترك شيئاً فى صدرها مما دبرت وأشرت .

فقال الربيع :

وكيف تصدقون فى الربيع بن زياد قول أمة حقيرة ليس لها من خلقها وشرفها ما يمنعها من الكذب والوقيعة ؟! بل كيف يقع فى قلوبكم موقع الصدق أن أكون سبباً فى أسر ابنة عمى ، مع أن عارها يلحقنى ؟! إنها تعرف ما بينى وبينكم من سوء الظنة ، فأخذت منكم الأمان ، ثم قالت قولتها ، وأحكمت خبثها ومكرها ، إذ جاءت بها على حال يظن فيها الحق ظناً ، وغداً ستظهر عبلة ، وينكشف الأمر ، وتبدو براءتى ، وتعرفون باطلها وزورها ، واشتد الجدل واحتدم ، وبدرت من الألسنة كلمات نابية .

ولما صرح الشرخاف زهير أن تقع الفتنة بين أمجاد القبيلة فرأى حسماً للنزاع أن يهجر الربيع الديار إلى بنى فزارة حتى تجىء عبلة ، فتلقى الربيع هذا الرأى بالقبول ، وقام ليستعد الرحيل .

٢٠

وفى بكرة الغد من تلك الجلسة ، كان هو وأربعمائة بيت ممن يبغضون عنترة ، ويذهبون مذهب الربيع فى كيده والحقد عليه — كانوا — فى طريقهم إلى بنى فزارة وكان بنو فزارة يحسدون عنترة على ما أوتى من مجد وهيبة ، وقوة ومكانة ، وما كان لبنى عبس وذبيان بفضله من إجلال ومهابة .

وصل الربيع إلى بنى فزارة ، فاستقبلوه استقبالاً كريماً ، ونزل فيهم على الرحب والسعة ، وقص عليهم سبب رحيله هو ومن معه إليهم . وبعد عشرة أيام من إقامته ، خشى أن يعثر عنترة على عبلة فى بنى شيبان ، فيأخذها إلى الملك زهير ، وهناك تقص قصتها ، فينفضح أمره ، ويظهر كيده وخزيه ؛ فاستقر رأيه على أن يذهب إلى مفرج فى بنى شيبان فيقتلها ، وبذلك تخفى جريمته ، ويقضى على قصة عبلة وعنترة ، ويريح أخاه عمارة .

فاستأذن حذيفة سيد بنى فزارة وأكبر أبناء أبيه أن يذهب إلى النعمان ابن المنذر ، ليهنئه بولايته الملك بعد أبيه ، فأذن له .

* * *

سار الربيع ومعه عبده سالم ، ودخل على مفرج فى بنى شيبان ، فأكرم قدومه ، وكان متنكراً بحيث لا تعرفه عبلة ؛ فطلب إليه أن يحضرها فحضرت ، ثم أشار عليهم بانصرافها فانصرفت ؛ ولم ير عليها شيئاً

من الحلى والجواهر ، فسأله عنها ، فقال : لم يكن عليها شىء من ذلك ، فقال الربيع : إنها عبلة بنت مالك بن قراد ، خطيبة عنترة بن شداد ، وقد أحضر لها ذهباً كثيراً ، وجواهر فاخرة ، من عند كسرى والمنذر وقيصر ، ثم جعل يحدثه عن رحلة عنترة لإحضار النوق العصفورية ، وما أبداه من مظاهر البطولة الخالدة ، والشجاعة النادرة .

فقال مفرج بن هلال : وكيف اصطفيتنى من دون العرب بتلك الداهية ؟ ! ومن قال لك : إنى أفوق قيصر وكسرى والمنذر قوة ومالاً ؟ ! أو إنى قصير النظر جاهل عواقب الأمور ، أسير على غير هدى وبصيرة حتى ترمينى بعنترة الذى يخوض المعارك وكأن سلاح القدر فى يده ؟ ! فخذ عبلة وارحل بها الساعة ، ولا تكن سبباً فى فقد الأهل ، وتشتيت الشمل ، وخراب الديار ، ونزول الدمار .

فابتسم الربيع ابتسامة دهاء ومكر ، وقال :

إن النخوة العربية لا تعرف مصيراً ، ولا تخشى عاقبة ؛ وأنت سيد فى عشيرتك ، لك جندك وأعوانك ، ومن خلفك النعمان بن المنذر ، لا يتركك دون مدد ونجدة ، إذا نزلت بك ضائقة ، فكيف تنزوى فى نفسك وتخاف عنترة ؟ ! ادع إلينا سناناً ، حتى نسأله عن الجواهر والأموال ، فناداه وتحدثا معه فى شأن جواهر عبلة ونفائسها ، فذكر أنها عنده ، ولم ينكرها وأحضرها جميعها إلا عقداً واحداً يبلغ ثمنه ألف دينار ،

أهداه إلى من كانوا معه من الفرسان، حتى يكتموا أمرها ، ولا يذكروا لأحد خبرها .

فسال لعاب مفرج على ما رأى من جواهر ، وقال :

وماذا نفعل فى هذا المال ؟

فقال الربيع :

لك نصفه ولى نصفه الآخر.

قال مفرج :

وعبلة ؟ !

قال الربيع : نواريها التراب خفية ، ويذهب كل منا إلى سبيله ، وكأنها لم تحضر إليك، وكأنك لم تسمع عنها شيئاً .

فقال مفرج :

رأى صائب، وسأنجز تنفيذه .

وكان لمفرج عبد يدعى بشارة بن منيع ، رباه على الأمانة والطاعة ، حتى أصبح موضع أسراره، فدعاه وقال له :

يا بشارة ! إذا جنّ الليل، فخذ عبلة إلى الخلاء ، واقتلها ، واجعل بطن الأرض مكان السر لجثتها ، واكتم هذا الأمر ، فلا يعلم به جن ولا بشر .

فقال بشارة سمعاً وطاعة، ثم حيا وانصرف .

واتفق الربيع ومفرج أن يذهبا إلى النعمان، لتهنئته والإقامة أياماً فى ضيافته .

* * *

حمل بشارة عبلة، وأبعد بها فى الصحراء وهى غارقة فى بكائها وحزنها ، لا تدرى ما يفعل بها ، ولا أين يذهب بها ! !

فلما وصل إلى مكان ناء، ليس به ديّار ولا نافخ نار ، قيدها بالحبال، وشحذ مديته، ومد يده إليها، وأكبها على وجهها ، وأمسك المدية باليمين ، وهمّ أن يذبحها، ويقضى ما أمر به فيها فصاحت :

يا لعدالة السماء ! ! ويا لرحمة القضاء ! !

فتحرك القدر ، واختلت فى بشارة القُدَر ، وأظلم منه البصر ، فاضطرب وتحير ، وجمد مكانه لا يبدى حركة ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، وبينما هو على حالته هذه إذ بسهم ينفذ من كتفه ، فيسيل دمه ، ويقع بجوارها، يقلب كفيه على ما حدث منه، ثم التفتت فوجدت شيبوباً بجوارها، فهدأت نفسها، وغمرتها بهجة السلامة ، وقالت :

لقد أدركتنى والسكين على رقبتى ، وأين أخوك عنترة ؟

قال شيبوب :

فى الديار وقد بعثنى أجوب فى البحث عنك الأحياء والقفار ، وهو الآن يرقب عودتى على أحر من النار .

قالت عبلة : وماذا أنت فاعل الآن ؟ !

قال شيبوب : أجهز على هذا العبد اللئيم ، ونأخذ سمتنا إلى ديارنا وأوطاننا .

قالت عبلة : لا أظننا واصلين إلى ديارنا من دون عنترة ، واشوقاه إليك يا عنترة ! واشوقاه إليك يا رابعة ! كيف أنت الآن أيتها الجارية الأمينة؟ والحبيبة الوفية ؟

قال شيبوب : أما رابعة فإنها بخير ، ولكن البكاء لا يفارقها ليلاً ونهاراً، ثم انفلت إلى بشارة ليقضى عليه ، وكان قد استمع لحديثهما فقال لشيبوب :

بحق البيت الحرام أن تجيرنى ، حتى أبدي لك ما فى صدرى ، ففيه لك ولعبلة كل خير وصلاح :

قال شيبوب : قل ما بدا لك ، فإن كان خيراً اتبعناه ، وإلا أغفلناه ، ونفذنا فيك ما نراه .

قال بشارة :

لقد سمعت فى حديثكم اسم رابعة .

قال شيبوب :

وما شأنك بها ؟

قال بشارة :

إنها فتاة تملأ أنظار عينيك طولاً وعرضاً ، وامتلاء واستواء ؛ كحيلة الطرف ، أسيلة الخد ، تجمله شامة ، زجاء الحواجب ، مشرقة النحر ، نحيلة الخصر .

قال شيبوب : كفى كفى ، إنها هى .

واستمر بشارة قائلاً :

رضعنا لبان الحب ، ونشأنا فى مهده ، فائتلفت أرواحنا ، وصفت موارد الهوى بيننا ، ثم احتال عليها عبد من العبيد ، وخرج بها إلى الصحراء ، فلقيه أنس بن مدركة ، فأسرها وقتله .

قال شيبوب :

وهى نفسها التى أسرها عنترة فى قتاله أنس بن مدركة ، وأهداها إلى عبلة .

قال بشارة :

وأحب الآن أن تقبلنى عبداً لكم ، أقيم على الإخلاص والوفاء بينكم ، عسى أن ألتقى برابعة ، وتعود إلينا حياة الألفة والمحبة ، ونحن الآن قادرون على أن نسير إلى دياركم ، ولكن ما أخشاه أن أبطئ على مفرج بن هلال فيبعث الفرسان للبحث عنى ، وربما أدركونا ، فحالوا بيننا وبين ما نسعى إليه من الفرار والهرب ، والرأى عندى أن تترك عبلة وديعة فى يدى ، وسأخفيها فى دارى ، وكفالة أمى ، وأذهب من فورى إلى مفرج فأخبره أنى نفذت ما كلفنى به ، وقتلت عبلة ، وجعلتها تحت كثبان من الرمال ؛

أما أنت يا شيبوب فاذهب إلى أخيك ، وأحضره فى قوة من الفرسان ، وحينئذ نذهب جميعاً إلى الديار ، وأعيش أنا ورابعة بينكم فى منازلكم ، على خير ما تبغون .

قال شيبوب :

وكيف آمنك على عبلة ، وقد أصبتك بجرح سال منه دمك ؟

قال بشارة :

لقد سرنى أن حال القدر بينى وبين ما كنت فاعله ، على كره من دخيلة نفسى ، وما كان سهمك إلا حسماً لما كنت فيه من اضطراب وحيرة ، فقد أصابنى وأنا حائر متردد ، هل ألبى داعى نفسى فأصفح عن عبلة ، وأطلق سراحها ، أو أعصى ضميرى ، وأطيع مفرجا فأقتلها ، وأواريها التراب ؟ حتى دفعتنى يد القدر بسهمك ، فألقتنى بجوارها مشغولا بجرحى ، فكن على ثقة من قولى ، ولا تخش غدراً منى ، فإنى فى حاجة ملحة إلى لقاء رابعة ، وأن أنعم بصحبتها على خير ما كنا .

ورأى شيبوب بخبرته وذكائه صدق العبد فاطمأن إليه ، واستودعه عبلة ، وتركهما وذهب إلى عنترة ، على أن يحضروا فى أقرب وقت .

أخذ بشارة عبلة فى سكون الليل وظلمته ، وأسكنها داره ، وأعلم أمه ما عقد عليه الميثاق من المحافظة عليها ، وإخفاء أمرها ، حتى تحضر فرسانها ورجالها ، وأنبأها بكل شىء .

ثم ذهب إلى مفرج والربيع فألفاهما ينتظرانه ، فقال لهما :

قد قتلتها ، ودفنتها فى حفرة عميقة ، وأهلت عليها كثباناً من الرمال ، ولن يعرف أحد مثواها ومستقرها وهذا دمها على ثيابى شاهد على ما أقول .

وكان قد جاء بدم كذب لطخ به قميصه ، ففرحا بذلك وأنعما عليه .

وفى الصباح شدا رحالهما إلى النعمان ، ليقيما عنده أياماً ، ثم يعود كل منهما إلى دياره ، حتى تذهب شبهة هذه الجريمة عنه .

ودلف شيبوب إلى أخيه ، فوجده حزيناً على فقد عبلة ، وإبطاء شيبوب فى عودته ، وما لقيه حتى ابتدره بالسؤال عن عبلة ، فقال :

هدئ من روعك ، فالأمر على ما تود وتبغى ، وجلس إليه ، يقص قصصها عليه ، فأحضر رابعة على عجل ، وأخبرها الخبر ، فقالت :

ما دامت عند بشارة ، فاطمئن عليها ، ولا توجس فى نفسك خيفة من أجلها ، فإنى عنده أعز عليه من نفسه ، وهو الآن أشد تلهفاً على لقائى منك على لقاء عبلة .

فقال عنترة :

لقد كان أسرى إياك ، مفتاح خير لى ولك ، وسأجزيكم بما فعلتم حياة طيبة ، وعيشاً رغيداً .

وأنفذ عنترة فى طلب عروة بن الورد ، فلما جاءه أخبره ، وطلب رأيه ، فقال عروة :

أرى أن يختفى شيبوب ولا يظهر ، وأن يبقى أمر عبلة سرًّا مكتوماً — خشية أن يتسرب إلى مفرج والربيع ، فيقتلان بشارة ، ويأخذان عبلة من داره يفعلان بها ما يبغيان ، وإذ ذاك لا نعرف لها مصيراً — ثم تعلن فى القوم يأسك من لقاء عبلة ، وانصرافك عن البحث عنها ، لأن العقل لا يطمئن بعد هذه الغيبة إلى أنها لا تزال حية ، وحوِّل حزنك إلى أخيك ، وأظهر قلقك على غيابه ، وعدم عودته ، وألق فى قلوب الناس أنك غير قاعد عن طلب أخيك والبحث عنه بين الروابى والآكام والسهول والجبال ، وليكن سلوكُك عن عبلة بادياً فى وضوح للناس ، وبعد ثلاثة أيام أخرج معك فى رجالنا ، وشيبوب معنا متنكراً ، على أنا خارجون للبحث عنه حتّى نجده ، أو نيأس من لقائه .

فقال عنترة :

لا عدمت صدق رأيك ، وجميل وفائك ، وكريم معونتك .

٢١

استخلف مفرج بن هلال فى رحلته ، حسان ابن عمه ، وجعل بشارة ابن منيع على خزائن أمواله ، إذ كان قد استخلصه من العبيد لنفسه ، وكان محل ثقته ، ومهبط سره ، ورحل هو والربيع بن زياد إلى النعمان بن المنذر ، فلما أشرفوا على أرض الحيرة والنجف ، وجدوا — لحسن حظهم — أن

النعمان فى يوم نعيمه الذى يفيض بالخير والإنعام على كل من لقيه فيه .

وكان النعمان قد سن لنفسه سنة ما سبقه إليها أحد من الملوك ، فجعل له من كل سنة يومين : يوم نعيم وفرح ، ويوم بؤس وترح ، وعرفه بذلك كل قريب وبعيد ، وكل باد وحاضر ، وكان يبدو يوم بؤسه فى لباس أحمر ، شاهراً سيفه ، ممتطياً جواداً أدهم ، ومن حوله قرابة ألف من العبيد الأقوياء ، وعليهم دروعهم ، وبأيديهم سيوفهم ، يقتلون كل من لقى النعمان بأمره فى يومه هذا ، أما فى يوم النعيم فكان يظهر على جواد أشقر وفى ثياب خضر ، وعلى رأسه تاج تتلألأ فيه فصوص الجواهر ، وبين يديه ألف غلام مرد ، يحملون بأيديهم صحافاً من فضة ، قد ملئت بالدنانير الكسروية ، كما يحملون على أكتافهم خلعاً رومية ، وكانوا يغدقون بأمر النعمان من تلك الدنانير والخلع على كل من لقيهم لا يفرقون فى ذلك بين العدو والصديق ، والذكر والأنثى والقوى والضعيف ، والواجد والمحروم .

وسبب ذلك أنه اصطفى لنفسه مغنية ونديمين ، كانوا موضع سره ، ومهبط إعزازه وحبه ، فأخذته ذات ليلة نوبة سكر حادة ، وخيل إليه فيها أن النديمين عبثا بمغنيته ، فقام إلى سيفه وهو لا يدرى ولا يعى وقطع رقابهم ، ثم حبسه النوم إلى الصباح ، وفتح عينيه على أعز الناس عنده مجندلين فى دمائهم ، فاحتدم غيظاً وحزناً وسأل :

من فعل هذا بندمانى وأحبائى ؟!

فقيل له :

ما فعله إلا يدك وسيفك ، وما حسبناك إلا مريداً له راضياً به .

فعرف أن ذلك من فعل الخمر ، وحزن حزناً شديداً ، ولبس ثياباً حمرا ، وركب جواداً أدهم ، وخرج فى ألف عبد ، وأمرهم أن يقتلوا كل من يلقاه أو يجيئه فى هذا اليوم؛ وجعله يوم بؤسه من كل عام .

أما يوم النعيم فسببه أنه ركب ذات يوم فى طائفة من فرسانه ، وخرجوا للصيد والقنص ، فى البرارى والأودية ، فجرى بجواده خلف ذكر نعام ليصيده ، وكان كلما حث جواده على أن يلحق به جد فى الهرب ذكر النعام حتى قطعه عن جماعته ، وكان ظلام الليل قد أقبل فاستعان به على الهرب منه ، والإفلات من بين يديه ، ووجد النعمان نفسه وحيداً فى أرض قفرة ممتدة الآفاق ، وحاول الرجوع إلى فرسانه ، فجعل يمشى هنا وهناك لكنه لم يزدد إلا ضلالاً ، فأرخى الزمام لجواده ، وتركه يسير على سجيته بمقدار ما بقى عنده من قوته ، وهو من فوقه يفكر فى مصيره ، ولا يرى بصيصاً من الأمل فى النجاة ، ولكنه لمح فجأة بيتاً من شعر على رابية عالية ، فذهب إليه راجياً عنده تفريج كربته ، والاستعانة به فى العودة إلى عرشه ومجلس حكمه .

كان هذا البيت لرجل من أعراب البادية ، وقد جلس أمام بابه ينضج لحماً ليأكله ، فتلقاه بوجه هش بش ، ونفض عنه غبار التعب

والحزن والمخافة بواسع كرمه ، وجميل استقباله ، وأضافه ثلاثة أيام وجد النعمان فيها من كرم العشرة وحسن الصحبة ، ما أعظم هذا البدوى فى عينه ، وجعل له حباً عظيما فى نفسه ، وعرف البدوى منه قصته ، فبشره بالعودة إلى ملكه معافى فى بدنه ونفسه .

ركب كل منهما جواده ، وسار البدوى فى صحبة النعمان إلى الحيرة ، وهناك وجد النعمان أهلها قد لبسوا السواد ، وأعلنوا الحداد حزناً على مليكهم الذى يئسوا من عودته . فلما رأوه مشرفاً عليهم خفوا إلى لقائه فرحين ؛ وذاع نبأ قدومه فى المدينة ، فماجت بمظاهر الفرح والسرور ؛ وكان هذا اليوم أهنأ أيامهم وأسعد أعيادهم ، وأكرم النعمان البدوى حتى أغناه ، واتخذ هذا اليوم يوم نعيمه من كل سنة ، ابتهاجاً بنجاته وعودته إلى ملكه .

• • •

أقبل الربيع ومفرج بن هلال على الحيرة فى يوم نعيم النعمان ، فأصابهما من النعمان فى ذلك اليوم مال وفير أثار إعجابهما ودهشتهما ، وتحرك لسان الربيع بالثناء الجميل على النعمان وكرمه ، ونال هذا الثناء الرضا والإعجاب من سمع النعمان ونفسه ، فسأل مفرجا :

من هذا العربى؟

فقال مفرج :

أمير من أمراء بنى عبس ، يدعى الربيع بن زياد .

فقال النعمان :

عجيب أن يزورنا رجل من بنى عبس ، بعد هذا الإغفال والهجر الطويلين ، فقد انتصر أبى لعنترة ، وأعطاه منحاً عظيمة ، وأكرم قومه ، فدفع الخراج عنهم ، ثم هجرنا ملكهم ، ونسى ما كان لنا من فضل عظيم عليهم .

وكان قد بلغ النعمان ، أن المتجردة بنت زهير ، لم يقع بصر على أجمل منها ، فتعلق هواه بها ، ولكن عزة نفسه أبت عليه أن يبدأ زهيراً بصلته ، والتقرب منه ، من أجل ابنة يرغب فيها ، مهما تكن تلك الرغبة قوية ملحة ، غير أنه لم يجد بأساً من التحدث إلى الربيع فى بنت زهير ، ليزداد معرفة بما هى عليه من رائع الجمال .

وما كاد النعمان يذكرها فى حديثه ، حتى أدرك الربيع أن هواه فيها ، وأن فى نفسه شيئاً من هجر زهير إياه ، وانقطاع الصلة بينهما ، فعزم على أن يستخدم هذه الحال فى هلاك عنترة ، وكبت زهير وإخماد سطوته ، فقال :

إن المتجردة بنت زهير من الحور الحسان ، ولكن أباها صخرة لا تلين ، وبلغ من تجبره وجموده أنه اعتقد أن ليس له فى الملوك قرين ، وقد استهواه طغيانه ، فألحق بأنساب العرب الصريحة ، ابن الفجور والشهوة ، العبد الزنيم عنترة ، وجعل فوق أيدى العرب يده ، ففررت من تلك المهانة والذلة إلى بنى فزارة ، إذ لم أطق المقام والقرار ، فى ديار يتحكم العبيد فيها

بالأحرار ، ولو أنك أرسلت إلى زهير رسولاً ، لرده إليك خائباً مخذولاً .

فغضب النعمان وقال :

وإن السكوت على هذه الحال من المحال .

ففرح الربيع وأخذ يتحدث فى أمر عبلة وقتلها ، وأخذ ما معها من مال وجواهر ، وذلك جرياً وراء هلاك عنترة ، إذ أن هلاكها هلاك له ، وذلك كل ما أبغيه ، أما المال الذى أخذته منها ، فقد أحضرته ، رجاء التفضل بقبوله ، ثم عرضه بين يديه ، فهذا تاج كسروى ، وذلك إكليل ذهبى ، وهذه عصابة ، وهذا خلخال ، إلى غير ذلك من فاخر الثياب والزينة ؛ وكذلك أهدى إليه مفرج نصيبه من مال عبلة .

فشكر لهما النعمان هديتهما ، ثم قال للربيع :

أريدك رسولاً إلى زهير فى أمر ابنته ، فإن أجاب وإلا عكرت عليه ملكه ، وأذقته الهوان والذلة ، وأخذتها من بيته ، رغم أنفه . قال الربيع :

وأرى أيها الملك أن تمهلنى حتى أرحل إليه ، وأتحدث معه فيما رأيت من مظاهر الملك العتيد ، والترف الباذخ ، والثراء الواسع ، والجنود الحاشدة ، والقوة الساحقة ، ثم أعرض عليه رغبتك فى الزواج من ابنته المتجردة ، فإن لبى الرغبة ، وإلا حقت عليه منك الغضبة .

فاطمأن النعمان ، ثم خلع على مفرج بن هلال ، وشيعه إلى كسرى لبعض الشئون .

وجهز النعمان الربيع بخمسمائة ناقة عصفورية ، وعشرة بغال تحمل صناديق مملوءة بالأموال والنفائس، وخمسين جواداً من الجياد العربية ، وكثير من الإماء والعبيد، وما زال الربيع سائراً بمن معه ، حتى نزل على ركب من بنى مالك، وحط رحاله ، حيث أرسل عبده سالماً إلى إخوته فى بنى فزارة ، ليخرجوا إلى لقائه، فى جماعة من رجالهم وفرسانهم ، وبقى الربيع فى منزله، منتظراً حضور إخوته .

وبينما كان عنترة سائراً فى جماعته، إذ أشرف على بنى مالك ، فألفى الربيع وعبيده وأمواله، ولكن الليل لم يمكنه من معرفته ، فأرسل عنترة فارساً من فرسان عروة، ليكشف أمر هذه الجماعة النازلة ، فذهب واندس بين عبيدها وإمائها، فسألوه عن أمره ، فقال :

ضلت خمسة إبل لى، فخرجت للبحث عنها ، ولعلكم تعرفونها ، ثم قال : ومن أنتم؟ فقالوا :

نحن عبيد الربيع بن زياد ، وهذه أمواله ، أهداها إليه النعمان ، فاذهب إليه فى مجلسه هذا، فعسى أن يمنحك عوضاً عن إبلك الضالة .

فشكرهم وأفهمهم أنه ذاهب إلى الربيع كما أشاروا،ثم دار دورة، انسلخ بها منهم إلى عنترة، وأفهمه حقيقة أحوالهم .

* * *

نهض عنترة وأعلم جماعته أنه سيهجم عليهم فى ظلام تلك الليلة حتى

يبيدهم جميعهم ، ويأخذ أموالهم، ووصاهم ألا يتجاوبوا النداء ببنى عبس وعدنان، ولكن بتميم وقحطان . ثم هب عليهم بجماعته هبوب العاصفة، فلم يترك واحداً منهم إلا جثة هامدة، ما عدا الربيع بن زياد ، فقد أوصاهم أن يثخنوه جراحاً، ويوثقوا أكتافه ، ويعصبوا عينيه بعمامته ، ويتركوه وحيداً، وأخذوا جميع ما معهم من الأموال ، فقال شيبوب :

نرسل الإبل والبغال مع عشرة من الفرسان، على أن يوزعوها سرًّا على إبلنا فى المراعى ، دون أن يدخلوا بها الديار ، ويوصوا الرعاة بكتمان أمرها ، حتى نعود إليها ، أما الصناديق فتدفن فى كثبان الرمال، فإذا استخلصنا عبلة ورجعنا ، أخذناها من مدافنها، ورجعنا بها إلى ديارنا فقال عنترة : نعم الرأى! وكان ما رأى .

واستأنفوا مسيرهم ،متجنبين الأحياء والمناهل، ولما دنوا من بنى شيبان، أنزلهم شيبوب فى برية مقفرة، ليكونوا بعيدين عن كل طارق ، وتنكر فى زى شامى ، وتركهم فى بريتهم ينتظرون عودته ، وعودة بشارة بن منيع وعبلة، وسار فى زى تنكره ، حتى كان فى ديار بنى شيبان ، يقطعها طولاً وعرضاً، حتى كلت قدمه، وضاق صدره ، وهو لا يلتقى ببشارة ، ثم رأى فى آخر المطاف فارساً ، أمارات الحيرة عليه بادية ، وكان هذا الفارس بشارة .

تقدم شيبوب إليه وسلم، فقال بشارة :

أتعرفنى أيها الرجل ؟

فقال شيبوب :

وما يمنعك أن تمن علىّ بمعرفتك ؟

فقال بشارة :

أنا بشارة بن منيع ، من عبيد مفرج بن هلال .

فقال شيبوب :

ولقد أتاك شيبوب بعنترة فى مائة فارس ، كأنها جن سليمان ، وأتاك متنكراً حتى لا يعلم به إنسان .

ففرح بشارة ، وأخذه إلى داره ، استعداداً للرحيل والهجرة .

كان بشارة حازم الرأى ، محكم التدبير ، فى رسم خطة الخروج بعبلة من داره ، إلى حيث ينتظرها عنترة ، فقد أخفاها فى زى فارس ، إخفاء لا يدركه أحد ، وإن سار بجانبها وتحدث إليها ، ثم خرج الثلاثة إلى البرية ، وما زال بشارة معهما ، حتى بعدوا عن الأحياء ، ثم قال لشيبوب :

اذهبا أنتما إلى عنترة ، وانتظرونى حتى أقدم عليكم ، ومعى ما أستطيع حمله وأخذه ، من خزائن وأموال مفرج بن هلال ، وأخبر عنترة أنه بمجرد أن يرانى قادماً ، ومعى تلك الأموال ، فى حراسة من أحضره معى من العبيد فليبادرنا بالهجوم ، ولا يترك عبداً معى دون أن يقتله ، حتى تخلص لنا هذه الأموال ، من غير أن يعرف مصيرها إنسان .

فقال شيبوب :

سيكون ما أردت ، ولك منا السلامة ، حتى تلتقى برابعة .

٢٢

رجع بشارة وبات ليلته ، وفى الصباح أطلع مالك بن حسان على كتاب كان قد أعده بشارة وكتبه ، على أنه مرسل من مفرج بن هلال إلى بشارة ، وفيه يأمره أن يأخذ جميع ما فى خزائنه من الأموال ، على مائة جمل ويذهب بها إلى جبال الردم ليحتفظ بها هناك ، حتى يحضر إليه ، أو تنجلى الغمة التى تهدده بالأخطار وقال له : وسأرسل إليك من الآن فى هذه الجبال بما أراه ، وأشير عليك أن تفعله ، وخذ معك من العبيد العدد الذى تراه ، ليعينك على المحافظة على ما أخذت معك من الأموال ، وليبق مالك ابن أخى ، كما استخلفته ، مقيما بين الأحياء ، لا يغادرها حتى أحضر إليه .

ولما اطلع مالك بن حسان على هذا الكتاب قال :

ما عليك إلا الاستجابة إلى ما أراد مولاك ، فهو أدرى بما حمله على إرسال هذا الكتاب .

أخذ بشارة جميع ما فى خزائن مفرج بن هلال ، وحمله على الجمال ، وذهب به نحو جبال الردم ، وأخذ معه عدداً من العبيد .

وما كاد بشارة يطل على عنترة بما معه من الأموال والعبيد، حتى فجأهم بجنوده ، وتولى شيبوب حماية بشارة، فاحتجزه فى ناحية ، موهماً أنه أسره ، وانتهت المعركة بإبادة العبيد، والاستيلاء على الأموال، وكان بشارة بن منيع سالماً فرحاً، وسار جميعهم إلى مخابئ الأموال والصناديق التى غنموها ، من الربيع بن زياد، وركبوا الطريق إلى محلتهم وقومهم، وكان قد خف إلى استقبالهم أبناء الملك زهير وحشد من القبائل والأحياء، فعجبوا أن رأوا كثرة المغانم، وطلبوا إليه أن يحدثهم بما كان، فأرجأ الحديث إلى حضرة الملك زهير .

شفى مالك والد عبلة من جروحه، وهب مع الفرسان إلى لقاء عنترة ، فلما وجد مغانمه كثيرة أسف نادماً ، وقال لابنه عمرو :

يا أسفا على هذه الأموال التى جاء بها عنترة ابن عمك ! ! لقد فقدنا أختك عبلة ، وخسرنا بفقدها أموالاً كنا أصحابها لو كانت أختك باقية لم تمت ، وما كان سرور عنترة بالحصول عليها بأعظم من سروره بإهدائها إليها، ولكننا ضللنا السبيل إلى الواجب علينا لابن عمك، ثم تقدم إلى عنترة فسلم عليه وهنأه بعودته سالماً غانماً، وسأله عن عبلة : هل وقف لها على خبر أو أثر ؟ فقال عنترة مفتخراً ضاحكاً :

يا عمى إن زوجتى عبلة بين أهلها وأمها .

فأطرق واجماً وظن أنه يمزح، ثم جارى الوافدين إلى لقاء عنترة فى تهنئته والسرور به ، وكان أشد الوافدين فرحاً بشارة بن منيع إذ وجد حبيبة

قلبه رابعة مع الحرائر ، فخف إليها مسلماً شاكياً آلامه وأحزانه التى صبت عليه من أجل فراقها .

ودخلوا الأحياء بين مظاهر الفرح والابتهاج ، التى عمت صغيرهم وكبيرهم ، رجالهم ونساءهم .

والتقى بشارة برابعة ، فخفقت القلوب خفقة الغبطة ، وعلتها من السرور نضرة، وأسكنهما عنترة فيما أقام لهما من خيام ، يجدان فيها كل وسائل المتعة والحياة الهنيئة .

وعاد مالك إلى بيتــه حزيناً ، وما إن دخله حتى وجد عبلة مع أمها فانقلب حزنه فرحاً ، وتحدثت إليه بكل ما مرت به من محن، وما قدر لها من وقايتها نوائب الزمن التى كادت تمتد إلى حياتها فتقضى عليها .

وقص عنترة على الملك زهير ما جرى، مبيناً مواقف الربيع المنكرة ، وأفعاله المخزية ، وأصر فى حضرته على استرداد ما أخذه هو وشريكه مفرج ابن هلال ، من مال عبلة وجواهرها، فقال زهير :

لا يزال الربيع متشبثاً بخبثه، حتى يهوى به فى حمأة الهلاك ، وهو الآن حليف مضجعه ، يقاسى آلام جروحه ، فقال عنترة :

ومم ذلك ؟

فأخبره ما أصابه وهو عائد من بلاد كسرى ، من قتل الأعوان ،

وسلب الأموال، وتركه ملقى على الأرض ، مثخناً بالجروح ، معصوب العينين، حتى أنقذه إخوته ، فقال عنترة :

ما أعقه بأهله ! ! وما أظلمه ! !

٢٣

كان الربيع قد أرسل سالماً عبده ، إلى إخوته ، ليخرجوا للقائه ، فى تلك البقعة التى نزل فيها للراحة من أرض مالك ، فلما حضروا لم يجدوا إلا جثثاً غارقة فى دمائها ، مطروحة على الأرض ، ففزعوا أن يكون الربيع قد أصابه مكروه فى نفسه ، ونشطوا فى البحث عنه هنا وهناك ، حتى ألفوه فى ناحية وهو خائر القوى، ندى الجروح ، معصوب العينين ، مشدود الوثاق ، فأطلقوه من سجن قيوده، وضمدوا جراحه ، وفكوا العصابة عن عينيه ، وسألوه عن هذه الحال، فقال :

بغتنا أناس فى هذا المكان، لا أعرف لهم قبيلة ولا حيًّا ، فقتلوا العبيد وسلبونا الأموال ، وخلفونى كما رأيتم، ولست أدرى : أهم يقتفون آثارنا من العراق ، أم فاجئونا « صدفة » واتفاقاً ؟ وأيا كان أحد الأمرين ، فإنى لا أعرف منهم أحداً .

ثم ساروا به إلى بنى فزارة ، وكان الملك قد جاءه نبأ مرضه ، فذهب هو وأبناؤه لعيادته، وهناك حدثه الربيع بما جرى ، ثم أخبره أن النعمان

راغب فى زواج المتجردة ابنته، ولكن زهيراً أبى ، ولم يرض أن تفارقه ، إلى ديار بعيدة، تعيش فيها غريبة .

وجاءه نبأ قدوم عنترة وعبلة، فدهش وتألم ، وتحير لذلك واغتم ، وقال له عمارة أخوه :

ألم تخبرنا أن عبلة قتلت ودفنت وكانت تراباً ؟ !

فقال الربيع : لم أرحل إلى النعمان إلا بعد ذبحها ، وقد رأيت دمها على ثوب العبد الذى سفكه .

فقال عمارة :

لقد خدعك، وجاءك بدم كذب .

فقال الربيع :

قد يكون ذلك، وسنعلم الآن من بعض العبيد الذين جاءونا بخبرهم .

ولما سألهم : كيف أنقذت عبلة وحضرت من غيبتها ؟

فقالوا : لقد أذيع بين الأحياء أنها ماتت ، وأن عنترة نفسه سلاها ، وشغل بغياب أخيه شيبوب عنها ، وبعد حين من الزمن ، رأينا عنترة وعبلة وشيبوباً قادمين ، ومعهم أموال تكاد تسد الأفق، من خيل وبغال ، وجمال ونياق وغيرها، ومعهم عبد حسن خلقه ، وجمل أدبه ، يدعى بشارة ابن منيع ، ويقال : إنه هو الذى نجاها من الموت المحتوم ، وحمل أموال سيده مفرج بن هلال، وجاء بها معهم ، ليقيم فى كنف عنترة ، ويهنأ

بلقاء حبيبته رابعة ، والزواج منها ، والعيش معها فى هذه الديار .

فحزن الربيع وعلم أن بشارة خدعه ومكر به ، من أجل رابعة التى يحبها ، ويسعى للقائها والاتصال بها ، ثم قال لإخوته :

الآن قد افتضح أمرى لدى الملك زهير ، وسيعلم من عبلة وبشارة سوء تدبيرنا ، وقبح فعالنا ، فإن أصابنا بسوء ، أوغرت عليه صدر النعمان .

فقالوا :

وكيف يوغر صدر ملك على ملك ، وليس ذلك من السهولة على نحو ما تقع بين رجلين من العامة ؟

فقال الربيع :

الآن الفرصة فى يدى ، فقد كلفنى النعمان أن أطلب إليه يد المتجردة بنته ، فما علىّ إلا أن أذهب إليه ، وأبلغه أن زهيراً عرضت عليه رغبتك فى بنته ، فثار وغضب ، وقال : كيف يطمع النعمان فى ابنتى ؟ أمن أجله أرضى ببعدها ، وأصبر على غربتها ؟ ! وكيف أرضى أن أزوجها فى غير قبيلتها ، فتهان وتساء معاملتها ؛ وأنا أستطيع حمايتها ، فإن ورائى أربعة آلاف فارس شاكى السلاح . ومع ذلك فإنى سأشاور إخوتى فى هذا الشأن ، وأظنهم غير خارجين على رأيى فيها ، وإنه إذا ما سمع النعمان ذلك منى عبأ جيوشه ، وساقها إلى زهير فأذله ، وجعله أحدوثة للناس على ما يظن .

ودعا زهير شيوخ القبيلة للفحص عن أمر عبلة : وانعقد مجلسهم ، وبدءوا يتناقشون ؛ قال عنترة لزهير : إن الربيع دفعته رخاوة خلقه ، وخسة نفسه إلى أن يجرد عبلة مما عليها من حلى وزينة ، وإن السكوت عليه وإغفال مطالبته برد ما أخذه ، إحسان له ولأمثاله من الأدنياء ، وإفساح لهم أن يلحوا على الجريمة ليشبعوا أثرة فى نفوسهم ، وليسلبوا الضعيفات من النساء أموالهن ، ومن السفه أن نتركهم يستمتعون بما غنموا بمداهنة الضعفاء واستكانة الجبناء ، ولهذا أعتقد أنك لا تمانع فى طلب هذا المال من الربيع ، وما دمت تقيم العدل ، وتكبح الظلم ، وتنزل الناس منازلهم ، فقد تركت الأمر لك لترسل إلى الربيع من يأمره برد ما أخذه ، على أنه إذا اعتذر وطلب الصفح عنه ، لعسر يعوقه عن رد المال ، فلا ضير علينا أن نعفو ونصفح ، لأنا بذلك نكون قد تركناه باختيارنا ، وكأننا منحناه إياه هبة ومنة ، فإذا غلظ رده وأبى أن يرجعه ، فسأشنها عليهم حرباً شعواء ، تأكل اليابس والأخضر .   فقال زهير : وإنا غداً لفاعلون .

° ° °

حيا عنترة زهيراً وشيوخ القبيلة وانصرف إلى بيته ، ليتم زفاف رابعة ، إلى زوجها بشارة ، وكان زفافاً رائعاً ، ما كان يخطر له على بال ، فنعم بشارة بزوجه رابعة ، وبمنزلته الكريمة عند عنترة ، وبما أفاض عليه من أموال وجوار ، وخيل وإبل ، ولما انتهى من إشباع نفسه بالإحسان إلى

بشارة ، والوفاء بما وعده ـ بعث عمه مالكاً وابنه ، يرجوان زهيراً ، أن يرسل فى طلب ما أخذ الربيع بن زياد من جواهر عبلة ، فأدرك أن عنترة حفزهما على أن يطلبا ما طلبا ، ولولاه ما أقدما على طلب شىء من زهير ، خجلاً من ماضيهما ، فخشى الفتنة فى قومه ، وبين أحيائه وقبائله ، فدعا قيساً ابنه ، وكان صهراً للربيع بن زياد ، وفى ضيق مما أصاب الربيع ولكنه لا يبديه ، وقال له :

بلغ الربيع أن يطب لدائه ، ولا يتمادى فى خطئه ، ويرد إلى عبلة ما أخذه ، وكفاه خزياً أن سبى ابنة عمه ، فلا يضم إليه خزياً آخر بالاستيلاء على مالها ، وقد بغض الناس فيه ، وجعل له فى قلوبهم غيظاً دفيناً .

وفى خمسة فرسان من أشداء قومه ، كان قيس بن زهير فى بنى فزارة ، وفى حضرة حذيفة بن بدر وإخوته ، وبعد التحية ، وإظهار السرور بقدومه ، سأله حذيفة عن حاجته ، مبدياً همة عالية ، واستعداداً واسعاً لتحقيق رغبته .

فقال قيس :

ما جئت إلا فى أمر يسير ، ما كان للربيع أن يفعله ، ويهجر موطنه تاركاً القوم من خلفه ينالون من شرفه ومنزلته ، بما فعله بعبلة ، ثم قص ما جرى ، وطلب أن يرد إليها ما أخذ منها ، فجنح الربيع لدهائه وخبثه ، وقال ، وهو يضرب كفاً بكف ، عجباً ودهشة :

ما رأيت مصيبة كالتى حلت بى ! ! تقتل عبيدى ، وتنهب أموالى ، وأترك فى البرية موثقاً ، معصوب العينين مكلوماً ، طعاماً سائغاً للوحوش الضارية ، ولولا لطف القدر ما تهيأ لأهلى الحضور لإنقاذى ، وما نجوت من الهلاك الذى يترصدنى ! ! يحل بى كل أولئك ، ثم يفترى عنترة علىَّ الكذب ، ويقول : إنى سبيت عبلة ، وأخذت مالها ؟ ! ! ذلك ما لا يستسيغه عقل ، ولا يفقهه قلب ، ومع هذا فعندهم عبلة يسألونها : هل رأتنى ليلة أن أسرت ؟ هل وقع بصرها على وجهى فى معتقلها وديار أسرها ؟ وما داموا جادين فى طلب مالها ، فليطلبوه من مفرج بن هلال ، الذى كانت عبلة حبيسة فى بيته ، على أن بنى شيبان ربما غضبوا أن خدعهم عبدهم بشارة بن منيع ، وفعل بهم فعلته من أجل رابعة التى يحبها ، وقد يكونون الآن فى استعداد للإغارة على بنى عبس ليستردوا أموالهم ، وينتقموا من بشارة كما فعل بهم ، وأظنهم لا ينامون على ضيم يحل بهم ، وقد يأخذ النعمان بن المنذر بيدهم ، ويكون ردءاً لهم ، فذكر أباك زهيراً بذلك وأيقظه ، حتى لا يندم على ما يبذله من كد هو ضائع عليه .

فأشكل على قيس الأمر ، وظن أن الربيع مفترًى عليه ، وأن عنترة ظالم له ، فقال :

ما رأيت ظلماً كظلم عنترة .

فقال حذيفة :

وما يمنعكم من قتله، وتطهير الأحياء من عبثه ، فقال قيس :

خشية الفتنة بين من يحبونه ومن يبغضونه، وما تجره على الديار من تفريق الشمل ، وانحلال الرابطة وتمزيق القوى، فيطمع فينا كل طامع ، وتصبح الديار نهباً لكل عدو ، وإن قل عدده، وعدم نصيره .

ثم رجع قيس إلى أبيه فوجده مع القوم، على غدير ذات الأرصاد وكلهم فى لهو وفرح ، ولعب ومرح ، احتفاء بضيوف من بنى غطفان ، جاءوا يزورون الملك زهيراً، ومعهم له هدايا ثمينة؛ فلما أخبر قيس أباه ، بما دار من الحديث بينه وبين الربيع وحذيفة بن بدر ، انتفض شاس من مجلسه وقال:

كيف يقول الربيع هذا القول الذى لا يقبله طفل ؟ ولقد رآه شيبوب بعينى رأسه ، وهو عند مفرج بن هلال، ليستخدمه فى قتلها ، وسلبها ما معها ؛ وهذا بشارة شاهد عليه، وكان أغلب الجمع مسروراً من قول شاس ، مغيظاً من الربيع وفعله، فقال زهير :

لتطمئنوا ولتهدءوا حتى تسألوا عبلة ، فعسى أن تجدوا لديها القول الفصل ، فقال مالك:

أيأذن لى الملك أن أسأل ابنتى وآتيكم على عجل ؟ فقال زهير :

نعم ، ونحن فى انتظارك .

ولما سأل مالك عبلة قالت :

لا أفترى الكذب على أحد، إنى لم أر الربيع ليلة أسرت ، ولا بعدها حتى حضرت إليكم .

فلما أخبر مالك زهيراً بإجابة عبلة ، قال :

ليس على الربيع شىء من لومكم هذا ، بشهادة عبلة المجنى عليها .

وكان بشارة حاضراً ، فخف إلى داره ، وأحضر عمامة وجبة وسكيناً ثم وقف بين يدى الملك زهير وقال :

يا مولاى ، اجمع بينى وبين الربيع بن زياد، وأنا أسفه قوله، وأثبت كذبه، وهذه الأشياء التى أعطانيها أمام مفرج بن هلال ، ليلة أمره بذبح عبلة، وإخفاء أمرها ، ولقد بلغ فى غلوه من كتمان ما دبر ، أن أمرنى ألا أذكر اسمه، وأنا سائر بها إلى مذبحها .

فاغتاظ قيس وقال :

إنى ذاهب إلى بنى فزارة ، ولن أعود حتى أميز المحق من المبطل .

ودهش الربيع إذ عاد إليه قيس صهره سريعاً، فسأله عن ذلك فقال :

لقد عرض بشارة على مجلس الملك الجبة والعمامة والسكين زاعماً أنك أعطيته إياها ليلة أمرته بذبح عبلة.

فسر الربيع لذلك، ووجد فيه معصماً يعصمه ، ويدفع عنه تهمة اغتياله عبلة، ونهب أموالها، فقال :

لقد قلت لكم ، إن عنترة هو الذى أغار علينا ، ونحن راجعون من

بلاد النعمان ، ومعنا الهدايا والأموال ، وهو الذى قتل رجالى ، وأخذ مالى وتركنى جريحاً موثقاً ، معصوب العينين ؛ والدليل على ذلك ، أن الجبة والعمامة والسكين اللائى يعرضهن بشارة كانت من ضمن تلك الأموال ، التى أخذها عنترة ، بعد أن أعدم رجالى وعبيدى ؛ ولقد كنت مصرًّا على أن أذهب إلى أبيك شاكياً عنترة ، ومطالباً بما سلبه من أموالى ، ولكنى خشيت الفتنة ، فأرجأت ذلك إلى حين ، ولقد صح عندى الآن أن عنترة هو الذى أغار علينا ، وقتل عبيدنا ونهب أموالنا ، وتركنى جريحاً يتهددنى الموت ، وهو الذى علم بشارة ، وأرشده إلى أن يقول ما قال ؛ ولقد عزمت على أن أستنصر النعمان ، وأعلنها عداوة وحرباً بينى وبين أبيك ، إن لم ينصفنى من عنترة ، ويرد لى ما أخذه من أموالى وما سلبه .

فقال قيس :

يظهر لى أن بنى عبس لا يستقيم لهم عود ، ما دام بينهم هذا العبد .

وقطعوا ليلتهم فى شجون الحديث ، وفى الصباح ودعه الربيع قائلاً :

أخبر أباك زهيرا أنى على استعداد للحضور إليه ، لأختصم عنترة ، وألزمه الحجة ، وأكشف عن كذبه وغدره .

وجد قيس أباه ومن معه من حاشيته ورجالات قومه ، عند غدير ذات الأرصاد ، فسلم وجلس بين يدى أبيه ، على مشهد من الجمع ، وسرد على مسامعهم ما سمعه من الربيع ، فقال زهير :

سأجمع بين الربيع وعنترة ، ليظهر الحق ، ويستبين المظلوم والظالم .

• • •

وبعد يومين ، أحضر عنترة إليه ، وقص عليه ما قاله الربيع لقيس ابنه ، وأنه سيلجأ إلى النعمان ويوغر علينا صدور بنى شيبان ، وإن لم نتدارك هذا الأمر قبل استفحاله استشرى داؤه ، واستعرت نار الفتنة بين العشائر ، فأكلتهم ولم تبق منهم باقية .

وأنفذ عنترة فى طلب بشارة ، فألفوه غائباً عن محلته منذ يومين ، فظن زهير أن بشارة قد كذب ، وخشى أن يكشف أمره فيحل به العطب فاعتصم بالفرار والهرب ؛ وأحس عنترة ذلك من الملك زهير ، فاتقد صدر عنترة غيظاً ، وأصرّ على أن ينصفه سيفه ، وإن حارب فى سبيل حقه ، العرب والنعمان ، وكان كسرى لهم ظهيراً ، فقال شداد وعمه مالك :

يحسن أن تطمئن إلى السكينة ، حتى يحضر بشارة من غيبته .

فقال عنترة :

يبدو لى أن الربيع احتال عليه ، حتى أخذه إليه فى بنى فزارة ، فلا يشهد عليه ، ويكشف عن حقيقة أمره ، وربما قتله حتى يخلص منه ومن شهادته ؛ ولا بد أن أذهب إليه فى بنى فزارة ، وأتبين حاله ، وأنقذه من أيدى بنى زياد ، وأنزل بهم ما يستحقونه من الويل والعذاب .

عنترة بن شدّاد

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر